

عباس محمد العقاد

# الانسان

## في القرآن الكريم

دار الاسلام  
القاهرة



إنسان القرآن  
وإنسان القرن العشرين

## تمهيد

انسان القرآن هو انسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هذا القرن اوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الانسان الى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى اليها ، كما ألجأ الى ذلك كله هذا القرن العشرون .

قديمًا كان الحكماء يجعلون شعارهم فى نصيحة الانسان : « اعرف نفسك ! »

وانها لنصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الانسان اذا أجابه فانما يجيبه باسم « باطنى » يعرفه بلامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذى يختار اعتسافا من بضعة حروف ..

وهو على أية حال سؤال الى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون فى الحجرة الواحدة ويجيبون عليه عشرون جوابا متفرقات ..

وقديمًا كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقي سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالا عن الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المساء .. فكان سؤالهم لغزا من الغاز الأقدمين عن الانسان فى أطوار عمره ، بين الطفل الذى يجبو على أربع ، والفتى الذى يعتدل على قدمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الانسان كله .. لا تبتعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة ..

الا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من  
مسبب الانسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد  
يكون هلاكاً للجسد والروح ..

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ ..

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ ..

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا  
النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان  
: « الانسان » ..

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفوة  
عرفانه بدنياه وصفوة ايمانه بغيبتها المجهول .. تجمع له زبدة الثقة بعقله ،  
وزبدة الثقة بالحياة .. حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان ..

ان القرن العشرين كان حقيقا أن يسمى بعصر « الايديولوجية » أو  
عصر الحياة « على مبدأ وعقيدة » ، لأنه كلما ألقى على الانسان سؤالا من  
أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه الى جزاء أهون من جزاء الحيرة  
عند السكوت عليه .. فان يكن سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحقق  
بالأبدان والعقول

وليس أكثر من « المبادئ والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن ،  
ويسمونها بالمذاهب و « الايديولوجيات »

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر  
الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعدها الى مشكلة الأبد : مشكلة ما مضى  
وما أتى من الدهر وما يأتى الى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة  
الدينية التى تؤمن بها الانسانية ، فلا يغنى فيها ايمان فرد واحد بينه وبين  
ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك  
بين عامة النفوس ؟ قصصارك انك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا  
ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم  
ولا لك ان سكتوا عليها ..

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغي أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريد على غير سوائها الذي تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواء

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتنبذ غدا ، ولا توجد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورغبة ، ولن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون في مواطنهم منتظرين ، وقد يقعدون وهم يجهلون انهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخبر وما المنتظر ؟ ان علموا أنهم منتظرون ! ..

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس.. خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير اليها ، وسبيلها جميعا أن تنهدى الى قبلة واحدة : تنظر اليها فتمضي قدما ، أو تفقدتها في الأفق فهي أشلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق ..

\* \* \*

ان القرن العشرين ، منذ مطلع ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولا نعلم انه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خذلنتهم كل قوة يعتصم بها الناس

\* \* \*

ونحن ندعى في هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة في الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وأن القرن العشرين سينتهي بما استحدثت من مبادئ ومذاهب و « ايدولوجيات » ولا ينتهي ما تعلمه أهل القرآن منه القرآن ..

وان أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه اذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دعايتها باسم المادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الالهية ، ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم

وقد استمع الناس الى المادية التاريخية ، فقالت لهم ان الانسان عملة « اقتصادية » فى سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الانسانية فقد أنصتت الى المادية التاريخية ، فقالت لها انها شئ لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الاسعار والأجور ..

واستمع الناس الى الفاشية فقالت لهم ان الانسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وان أبناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس الى « العقلية » فقال لهم قائل منها ان « انسانياتهم » كذلك شئ لا وجود له ووهم من أوهام الازهان ، وان الشئ الموجود حقا هو الفرد الواحد ! .. وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث ! ..

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الالهية عن مكان هذا الانسان من الأرض والسماء ، ومكانه من اخوته فى آدم وحواء

سمعوا انه روح وجسد ، ودنيا وآخره ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء ..

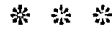
وسمعوا انه انسانان .. انسان صحيح مقبول ، وانسان زائف مدخول .. صحيح مقبول كل من اجتباه مولاة على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه

وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن اباء أو اختيار

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما يستمعون الى الايمان اذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم اليه . . .

الانسان في عقيدة القرآن هو الخليقة المستغرل بين جميع ما خلق الله . . .  
يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجوده فيما طواه الغيب ، فلا تدركه  
الأبصار والاسماع -

و « الانسانية » من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد  
واله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه  
واتقاه . . .



وفي الصفحات التالية كتابان في كتاب وجيز . . . نبدأهما بعقيدة القرآن  
فنعيد هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث  
عن نشأة الانسان في مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس والخيال ،  
ولا نزيد في سردا على الامام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ  
بالبرهان أو يؤخذ بالايمان عن حقيقة الانسان . . .



الكتاب الأول

## الإنسان في القرآن



## المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب الى عقائد الرشد والهداية . لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التي ذكرها القرآن عن الانسان ، اما خاصة بالتكليف أو عامة في معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله . .

ولقد ذكر الانسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة . فلا يعنى ذلك انه يحمد وينم في آن واحد ، وانما معناه انه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف

والانسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

\* \* \*

« كل امرئ بما كسب رهين »

« سورة الطور »

\* \* \*

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون »

« سورة البقرة »

\* \* \*

أما مناط المسئولية في القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل اليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع . .  
فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها الجملة : تبليغ ، وعلم ، وعمل . .

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة في مسائل الغيب ومسائل  
الإيمان :

« ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم  
لا يظلمون »

« سورة يونس »

\* \* \*

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »

« سورة فاطر »

\* \* \*

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

« سورة الاسراء »

\* \* \*

أما العلم فإن أول آية في الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية ،  
كانت أمراً بالقراءة وتنويعها بعلم الله وعلم الإنسان :

\* \* \*

« اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »

« سورة العلق »

\* \* \*

وأول فاتحة في خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذي تعلمه آدم  
وامتاز به على سائر المخلوقات :

\* \* \*

« وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني  
باسماء هؤلاء ، ان كنتم صادقين » قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا  
انك انت الخليم الحكيم »

« سورة البقرة -

\*\*\*

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذي نسعه طاقة المكلف :  
وبالسعي الذي يسعاه لربه ولنفسه :

\*\*\*

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

« سورة البقرة -

« وأن ليس للإنسان الا ما سعى »

« سورة النجم -

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

« سورة الزلزلة -

\*\*\*

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أمهم جميعا أمة واحدة  
هي « الأمة الانسانية » والهم جميعا اله واحد هو رب العالمين :

\*\*\*

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم »  
« وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »

« سورة المؤمنون -

\*\*\*

وفيما ذكر فيه الانسان من آيات الكتاب ووصف له ، وهو في الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف له وهو في الدرك الأسفل من الحطة التي ينحدر اليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهي ، والعظة والتذكير ، والثواب والعقاب ..

فالانسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

\* \* \*

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »

« سورة الاسراء »

\* \* \*

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم »

« سورة التين »

« سخر لكم ما في السموات »

« سورة لقمان »

« سخر لكم ما في الأرض »

« سورة الحج »

\* \* \*

ولكنه ينقرد بين الخلائق بمساوية لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة - على السواء - لا يوصف بها مخلوق غير مسئول ..

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للايمان والعدل والرجحان والعفاف

« ان الانسان لظلوم كفار »

« سورة ابراهيم »

\* \* \*

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى »

« سورة العلق »

\* \* \*

« ان الانسان لفى خسر »

« سورة العصر »

\* \* \*

« بل يريد الانسان ليفجّر أمّاه »

« سورة القيامة »

\* \* \*

« ان الانسان لربه لكنود »

« سورة العاديات »

\* \* \*

وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة كما جاء فى قوله تعالى :

« لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم • ثم رددناه أسفل سافلين »

\* \* \*

ونقرأ فى بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو يقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد

ونقرأ فى غيرها أن أسفل سافلين هى الجحيم ، فيكون لزما أن الجنة هى المقصودة بأحسن تقويم

وقهيم الكيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتماد قوام الإنسان ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا باعتماد الفروم ، بل ترتبط به القدرة على الحمل والارادة ، وهي قدرة لم تكن علاقتها بصورته الظاهرة قبل عصر المسيح والنام برطائف الاعضاء الذي أثبت العلاقة الضرورية بين اعتماد القناة وجواز النطق في الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الغبطة والجمال

وانما المعنى الموافق لسائر معاني الآيات ، ان الجمع بين النقيضين في الانسان ينصرف الى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذي يجعله أعمالا للترقى الى أحسن تقويم وأهلا للتدهور الى أسفل سافلين

على ان الآيات التي قصر فيها القول على خلق جسد الانسان . لم نحل مما يوحى الى المخلوق المسئول ان أطوار خلقه السوى اعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذي لا تدركه الأبصار والأسماع :

\* \* \*

« ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .  
سورة المؤمنون .

\* \* \*

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه »

سورة السجدة .

\* \* \*



« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »

« سورة الروم »

\* \* \*

« سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »

« سورة يس »

\* \* \*

ولا يسأل الانسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من شئ فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الانسان ، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه

## الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ وإقناع وتبيين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها على قدر مبين

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل في هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الإنسانية

وخلق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه الى هذه الفضيلة التي تحسب لأول وهلة كأنها شيء من الواقع البديهي لا يحتاج الى التنبيه ، ولكن حاجته الى التنبيه انما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، في فضيلة التبليغ المقصود ، ونعني به التبليغ الذي يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان

في كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاة الإنسان من الهلاك أو ضياعه في هاوية المقت واللعة ، ثم تبحت عن هذه الأركان في كتاب الدين فاذا هي معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون الى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادفات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها ..

مثل هذا لا يعرف في حكم من أحكام الكتاب المبين ولا في ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقيض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على إتمه بين الأركان التي تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ ..

مكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة .  
وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليفة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة  
الكائنات ..

هو الكائن المكلف ..

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين « الكائن الناطق » .  
وأشرف فى التقدير ..

هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد ،  
وأشرف فى التقدير من هذا وذاك

ليس الكائن الناطق بشيء ، ان لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف .

وليس الملك الهابط منزلة تهدى الى طريق الصعود أو طريق الهبوط ،  
رئيس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار اليه ،  
ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء

انما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة .  
أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح فى الخليفة موضوع فى موضعه  
المكين بالقياس الى كل ما عدا ..

أى شيء أعجب من هذه الخاصة المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات  
الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية ..

انها عجيبة لا يدفع عجبها الا أنها تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب  
المبين ..

انها عجيبة لم تأت من مصادقات التضمن والتخمين ، لأن الكتاب الذى  
ميز الانسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب « العقل » بكل  
ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعللون ، قبل أن يصبح  
العقل « درساً » يتقصاه الدارسون كنها وعملا ، وأثراً فى داخله وفيما خرج  
عنه ، وفيما يصدر منه وما يؤول اليه ..

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال ..

العقل روية وتدبير ..

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما  
يكون ، وتحفظ وتعى وتبديء وتعيد ..

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل  
أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم  
رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على  
المكلفين فيما يعينهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر  
خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

\* \* \*

« ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا »

« سورة آل عمران »

\* \* \*

« أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما  
الا بالحق وأجل مسمى »

« سورة الروم »

\* \* \*

وقد ننقل تكاليف القرآن جميعا ، وننقل عظامه جميعا اذا أردنا  
 انشواغنا على هذا التوافق الموصول بين تمييز الانسان بالتكليف في القرآن  
 وبين خطابه للعقل والفكر ، ونذكره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز  
 في مصطلحات الأوائل والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة في ذهن كل قارئ  
 لهذا الكتاب ، وكل قارئ على المقابلة بينه وبين غيره من كتب الأديان ، ولو لم  
 يعبر عنها غير مصطلحات معدودات .

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ في هذا الكتاب ان الأمر فيه  
 يجري على هذه السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة .

انها الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشري قبل تمييز الانسان  
 بخاصة التكليف واعداده لخطاب العقل وبينات الاقناع .

كانت الأمم - قبل البعثة المحمدية - تفهم أن النبوة استطلاع للغيب  
 وكشف للأسرار والمخبات ، يستعان بها على رد الضائع وإعادة المسروق أو  
 الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوابع الخير والشر ومقادير السعور  
 والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود  
 وعباده للتشفع اليه بالهدايا والقرابين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا  
 للنوازل التي يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون  
 العارفون ، ويسألون المعبود في دفعه قبل نزوله . فجاءت نبوءة الاسلام  
 بجديد باق لم تسبق له سابقة في الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده الى  
 جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب في الانسان صفته الباقية وخاصته  
 الملازمة ، وهي خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء أو خاصة الضمير  
 المسئول الذي يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعاة ولا كفارة من سواه .

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم . وهى نبوة  
 هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر  
 والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعيها قبول الاقناع .

انها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعمل لهم عملا

غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم اذا اهتمدوا بهداية العقل المتدبر والضمير  
:السليم :

\* \* \*

« قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله • ولو كنت أعلم الغيب  
لاستكثر من الخير وما مسمى السوء ان أنا الا نذير وبشير فقوم يؤمنون »  
« سورة الاعراف »

\* \* \*

نعم • • ولا اغراء ولا مساومة على قربان أو على جزاء بين الأخذ والعطاء :

\* \* \*

« قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني  
ملك • ان أتبع الا ما يوحى الى • قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا  
تتفكرون »  
« سورة الانعام »

\* \* \*

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة ، يوم مات ابنه  
ابراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته ، وأبى النبي  
الصادق أن يسكت عليها ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان لا تخسفا  
لموت أحد ولا لحياته

وقد بين للناس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء الى  
بينات الاقناع :

\* \* \*

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون • لقالوا انما  
سمكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون »

« سورة الحجر » .

\* \* \*

ولقد تقدمت نبوة الاسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنًا في  
تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم  
يستطع أن يختتم دور النبوة في تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على  
جلالة شأنها ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس  
فكرة الإنسانية العامة وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل  
والضمير ••

فنبوات بنى اسرائيل لم تنزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنزل  
بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم ، وعيسى عليه السلام قد نقل  
الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح في عداد أبنائه بالجسد ،  
ولكنه أدى رسالته وبقي الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه  
من الاعتماد على غيره في النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض  
بتبعات صلاحه وتربية روحه ، ولن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الإنسانية  
قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه ،  
ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر في  
عبادة اله واحد ، هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة  
واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ،  
وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها ••

فلما جاءت نبوة التكليف ، صبح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوة  
لأنها حاضرة في كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول ، وتحضره  
آيات الله لقوم يعقلون

\* \* \*

« ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

« سورة البقرة »

\* \* \*

ان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون ، قد اختتم سلطان الأحبار والقادة كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات ، فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين :

\* \* \*

« قالوا فيم كنتم • قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »

« سورة النمل »

\* \* \*

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن النهدي بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين »

« سورة سبأ »

\* \* \*

« يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله »

« سورة التوبة »

\* \* \*



« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

« سورة التوبة »

\* \* \*

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

\* \* \*

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

« سورة النحل »

\* \* \*

فاذا سمي ختام النبوة باسمه الحق فى تاريخ الانسان ، فاسمه الحق انه هو فاتحة عهد الرشيد فى حياة الانسانية الخالدة ، قبل عهد الرشيد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون

﴿

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره فى « عصر العلم » فلا يفهم منه الا أنه « حكر » الاثرة يغلقه النبى على من بعده ، ويسينغ هذا السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هذا النبى ، كيفما تصوره الناظر اليه على حقيقته أو على دعواه .. فهذا « الحكر » صنيع لا يصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طيعة منقاد بين يديه .. فان جاز فى حقه هذا « الحكر » المقتصب ، فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته على اخلاف دعواه ؟

ان اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير في عقل يطيق أن يدرك  
 ، الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم . ولو كان احتكار النبوة باعث  
 النبي الى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأحبار والولاة ، ولا دخل فيها  
 ، ادعاء النبوة أصلا وهي لا تخول النبي ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المعيب  
 . المجحول من مشيئة الله

ولكن الايمان بالعقل المسئول ، هو الباعث البين الذي يفسر ما لم يفسره  
 . صغار العقول من اختتام النبوة واختتام الكهانة واختتام سلطان الحاكمين  
 على الضمير ، وان انتظامه كله على هذه السنة المتفككة لهو الآية الناطقة  
 : بإرادة الله

## روح وجسد

عقيدة الروح احدى العقائد الغيبية فى القرآن ٠٠ والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس الدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن اليها ضمير الانسان ، ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القرآن الغيبية انها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول ، وهو يؤدي حق التمييز وحق الايمان والاسلام : اسلام الأمر كله الى الخالق المعبود ٠٠

وعقيدة الروح احدى العقائد « الغيبية » التى نلمس فيها هذه الفضيلة ، كأنها من حقائق الحس وان وجب على العقل الانسانى أن يؤمن بعلمه القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الايمان بأنها من علم الله ٠٠

ذلك بأن الايمان بالروح ، لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقااض التى تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخلقين : خلقه الانسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروف المطالب والغايات ، محسوس اللذات والآلام

فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الانسانية ؛ تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك ٠٠ وعلى الله قصد السبيل

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن اباحة المحرم :

\* \* \*

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ • وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ »

« سورة المائدة »

\* \* \*

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن يتفق منها غير مسرف في انفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها :

\* \* \*

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ »

« سورة البقرة »

\* \* \*

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَعْبُدُونَ »

« سورة البقرة »

\* \* \*

ومن تمكين الإنسان في الأرض أن يبتغي فيها معيشته ويسيم فيها مطيته ، وأن يتخذ منها زيتته ، ويتم بها عدته ، ولا يزهد في شيء من خيراتها يخرج نفسه أو تخرجه له الأرض من فضل ربه :

\* \* \*

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ • وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ • هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون • ينبت لكم به الزرع  
والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم  
يتفكرون »

سورة النحل ،

\* \* \*

بل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة ،  
والخطاب فى هذا موجه الى بنى آدم لأنه نعمة مرضية من نعم الانسانية ، ومن  
تميز الله لهذا الانسان على سائر الحيوان :

\* \* \*

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا  
انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من  
الرزق »

« سورة الاعراف »

\* \* \*

« ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش »

« سورة الاعراف »

\* \* \*

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشة الأرضية  
وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقض فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين  
دنيا وآخرة ، ولا فصام فيه للذات الانسانية يحار فيه العقل وتتمزق به  
أوصال الضمير

وقوامه فى خطاب التبليغ للانسان من بنى آدم كافة :

\* \* \*

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »

.. سورة القصص ..

\* \* \*

فليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس فى القرآن فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يوزع « الذات الانسانية » بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة ، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، فى غير اسراف ولا جور عن السبيل :

\* \* \*

« ومنها جائر • ولو شاء لهداكم أجمعين »

\* \* \*

ان القرآن الكريم بهذا الالهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائص التفكير ، ولا ينحيه من نقائص التكليف وحسب ، أو من نقائص الحيرة بين العالمين فى حقائق الدين ، ولا مزيد

فمن ضلال التفكير قديما ، أنه ساق كبار العقول الى ذلك الفاصل المعتسف بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى ..

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديما وحديثا - فى الدين والعلم - من عزل أصيل بين الصفاء والكدر ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين التقيضين من النور والظلام ..

ان هذا الاعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل زمنا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان

ان العقل ليعلم اليوم ان ذرات الترات وذرات الضياء « من معدن واحد ، وان الحجر اليايس يتفتت فاذا هو شعاع ، وان الشعاع المطلق ينعقد ويتقابل فاذا هو حجر ، وان الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك فى خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الايمان ..

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟  
ماذا يقول عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟

سيقول علما ما قال به قارئ الكتاب ايمانا حين قيل له عن الروح  
فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالايمان :

\* \* \*

« قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

« سورة الاسراء »

## الـنـفـس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب الى  
الكون ..

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب الى الانسان ..  
ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها  
وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الالهى هو  
العقل الفعال Poietikos المنزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل  
الانسانى أو العقل المتفعل Pathetikos

ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك فى الصفاء والشرف .. فعندهم أن  
الروح أقرب الى عنصر النور ، وأن النفس أقرب الى عنصر الهواء والتراب ،  
ويقول أتباع أفلاطون ان العقل الالهى فيض منعم صاسر عنه « النفس »  
ومنه صدر ما دونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفاتها ، وهم يذكرون  
النفس بصيغة المذكر ويتابعهم فى ذلك من كتبوا بالعريضة وتابعوهم فى  
مذاهبهم الصوفية ..

والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر  
حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس الى الكائنات العضوية جميعا ومنها  
كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم  
على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التى تجعل  
أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد ، ونصيبها  
من الإرادة أكبر من نصيب الجماد وأصغر من نصيب الروح ، فانها لا تملك  
الانتقال من المكان الذى هى فيه ..

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف  
والصفاء ، والانسان له نصيب من العقل .. ولكنه دون العقل الفعال فى



جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى ، وله روح يعلو به على سائر الموجودات ،  
ونفس قد يقترب بها من الكائنات التى تنمو وتلد وتريد على درجات ..

ان هذا الاختلاف بين هذه القوى فى مصطلح الحكمة اليونانية ، وفى لغة  
الكتاب المبين ، يقاس من ناحية الى كثافة المادة ويقاس من ناحية الى المثل  
للأعلى ، وهو الله

وقد يقاس الكمال فى مصطلح الحكمة اليونانية الى الجوهر بمقدار  
ارتفاعه ، والى المادة أو الهيولى بمقدار هبوطه ..

ولكن كمال هذه القوى فى لغة القرآن مقيس الى كمال الله جل شأنه ..  
فأرفعها وأشرفها ما كان أقربها الى الصفات الالهية ، وأدناها وأخسها ما كان  
أبعدها من تلك الصفات ..

ومن المقابلة بين هذه القوى ، كما ذكرت فى الكتاب المبين ، قد نتبين  
أن « الروح » هو أقربها الى الحياة الباقية وأخفاها عن المدارك الحسية ، وأنه  
الجانب الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيائه ، لأنه سر الوجود  
المطلق .. لا قدرة للعقل الانسانى المحدود على الاحاطة به ووعيه الا بما  
يناسبه من الاشارة والتقريب :

\* \* \*

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا  
قليلا »

\* \* \*

أما العقل والنفس فى بيان القرآن الكريم ، فالراجع أن النفس أقربهما  
الى الطبع أو القوة الحيوية التى تشمل الارادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل  
واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة  
للقوة التى يدركها النوم ، والقوة التى يزهقها القتل ، والقوة التى تحس  
النعمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسنة

وسيثقة ٠٠ فهي القوة التي تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع  
الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة ٠٠

\* \* \*

« الله يتوفى الأنفس حين موتها وانتهى ثم تمت فى منادها »

« سورة الزمر »

\* \* \*

« وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار »

« سورة الأنعام »

\* \* \*

واذا ذكر قتل النفس « فى القرآن » ، فانما هو قتل الانسان أو الناس  
على حسب الخطاب الى الفرد أو الجماعة :

\* \* \*

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس  
جميعا »

« سورة المائدة »

\* \* \*

« ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم وحيدا »

« سورة النساء »

\* \* \*

« ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم »

« سورة البقرة »

\* \* \*

ولكن الانسان اعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها :

\* \* \*

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فإن الجنة هي المأوى »

« سورة النازعات »

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي « الذات الانسانية » تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » في حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فانما هي انسان واحد في جميع هذه الحالات ، وهي تعبيرات عنها في جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها ، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب اليهما من وعى باطن ووعى ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافضة وبديهة وروية الى غير هذه الأسماء التي تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وان لم تتعدد في مصدرها المعلوم أو المجهول ••

وقد ذكرت النفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة ••

فقوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمارة بالسوء » :

\* \* \*

« وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء »

« سورة يوسف »

\* \* \*

وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة :

\* \* \*

« ونفس وما سواها • فآلهمها فجورها وتقواها • قد أفلح من زكاها »  
وقد خاب من دساها »

« سورة الشمس »

\* \* \*

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهي النفس التي يقع منها الحساب .  
كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

\* \* \*

« لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة »

« سورة القيامة »

\* \* \*

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الاعذار :

\* \* \*

« بل الانسان على نفسه بصيرة • ولو ألقى معاذيره »

« سورة القيامة »

\* \* \*

وقوة الايمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

\* \* \*

« يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعي الى ربك راضية مرضية »

« سورة الفجر »

\* \* \*

وفي كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى . . فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن ، وهما كما نقدم خاصة الكائن المكلف المسئول .

\* \* \*

« كل نفس بما كسبت رهينة »

« سورة المدثر »

\* \* \*

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا »

« سورة الانبياء »

\* \* \*

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا »

« سورة آل عمران »

\* \* \*

« اذا السماء انفطرت • واذا الكواكب انتشرت • واذا البحار فجرت •  
واذا القبور بعثرت • علمت نفس ما قدمت وأخرت • يا أيها الانسان ما غرك  
بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك • في أى صورة ما شاء ركبك »

« سورة الانفطار »

\* \* \*

« واذا النفوس زوجت • واذا الموءودة سئلت • بأي ذنب قتلت • واذا  
الصحف نشرت • واذا السماء كشطت • واذا الجحيم سعرت • واذا الجنة  
أزلفت • علمت نفس ما أحضرت »

« سورة التكوين »

وجملة ما قيل فى معنى « النفوس زوجت » أنها تفرن بمفوماتها وأعمالها  
أو تضم الى أشباهها وقرنائها

فحساب النفس من حساب الانسان ، ولكن الذات الانسانية أعم من  
النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة ، فان الانسان  
يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذى لا يعلم  
الانسان منه الا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة  
ومستلهم لهداية الروح

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى فى الذات الانسانية .  
وعمل كل منها فى القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول .

فالانسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من  
جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من  
جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله . . . وحق العقل  
أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها  
المطلق الا بايمان والهام

## الأمانة

وردت كلمة الأمانة والأمانات في خمسة مواضع من القرآن الكريم ، وكلها بالمعنى الذى يفيد التبعة والعهد والمسئولية وخصصت هذا المعنى فى آية من « سورة البقرة » بوديعة المال وما اليه . اذ قال تعالى فى سياق وثائق الديون :

\* \* \*

« يا أيها الذين آمنوا اذا تدانيتهم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » . . . . الى قوله تعالى : « فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله . . . » .

\* \* \*

ففى هذه الآية خصصت الأمانة بما يؤمن عليه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهى الحق والفريضة ومنها حق العلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن ينسى حقه :

\* \* \*

« ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » .

\* \* \*

وكل ما ورد فى غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام ، وان ورد على سبب خاص ، لأن مناسبات النزول لا تمنع سريان الحكم والتبليغ الى جميع المخاطبين بآيات الكتاب .

جاء في سورة النساء : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ،  
واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

\*\*\*

قال الامام الزمخشري في الكشاف : « الخطاب عام لكل أحد في كل  
أمانة ٠٠ وقيل : نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن  
الكعبة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح  
أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح اليه وقال :  
« لو علمت انه رسول الله لم أمنعه » ، فلوى على ابن أبي طالب رضى الله عنه  
يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين .  
فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ،  
فنزلت الآية ، فأمر عليا أن يرده الى عثمان ويعتذر اليه ، فقال عثمان لعلي :  
« أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : « لقد أنزل الله في شأنك قرآنا » .  
وقرأ على الآية . فقال عثمان : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا  
رسول الله ٠٠ »

ومضى الامام الزمخشري في تفسير الآية الى أن قال : « وقيل هو خطاب  
للولاء بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرىء الأمانة على التوحيد »

وفي الجلالين ان الآية « وان وردت على سبب خاص فعمومها معتبر  
بقريئة الجمع » ٠٠

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « ان الظاهر أنها نزلت قبل  
فتح مكة وأن النبي عليه السلام تلاها استشهادا »

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول  
ان الأمانة « كل ما أؤتمنتم عليه من قول ، أو عمل ، أو مال ، أو علم ،  
وبالجملة كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره » وان  
الخطاب موجه الى الناس عامة والى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد في سورة المؤمنون :



« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »

\*\*\*

فهى تشمل كل ما يرعاه الانسان من عهد وذمة • وهذا هو معنى الامانات فى سورة الانفال ، وعلى هذا المعنى - اجمالاً - يفهم كل تبليغ خوطب به الناس عامة وان نزلت به الآيات لمناسبة خاصة

أما الامانة التى عرضت على الخلق عامة ، فحملها الانسان ولم يحملها أحد من خلقه ، فهى أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالنسبة الى أحكام التبليغ ، لان الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التى فطر عليها العاقل وغير العاقل واستعد لها الحى وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب •• وفى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليفة كلها ، وذكرت ومعها صفة الانسان التى تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعباءها ويحملها ، وما كان ليحملها الا أن يتعرض لتبعاتها فهو ظلم جهول •• ظلم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التى تهديه الى عملها •• وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذى يتعداه ولا تناط به معرفة الحدود • وانما يوصف بالظلم والجهل من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالى

\*\*\*

قَالَ تَعَالَى : « انا عرضنا الامانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »

« سورة الاحزاب »

\*\*\*

وذكرت هذه الفطرة الانسانية فى موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر تكريم الانسان وولايته زمام الكائنات مفضلاً على كثير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سورة الاسراء :

« ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات .  
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »

\*\*\*

« وكثيراً ممن خلقنا » في هذه الآية تشمل كل مخلوق لم يكن أهلاً  
لأمانة الخير والشر أو لأمانة التكليف ، بما أودع فيه من فطرة التكوين

\*\*\*

ولقد وضع معنى « الأمانة » في هذا الحكم العام وضوحاً لا يقبل  
اللبس أو الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف . ومن لم  
يذكره من المفسرين بنصه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، وهي ملازمة له .  
لا تنفك عنه . .

وهذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين تناقلوا الرواية بالمعنى الذي فهم  
من كلمة الأمانة منذ صدر الإسلام إلى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الإمام الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ للهجرة : « يريد بالأمانة الطاعة  
فعظم أمرها وفخر شأنها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن  
الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجمادات وأبائها واشفاقها مجاز ، وأما  
حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة أو محتمل لها ، نريد أنه لا يؤديها  
إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج من عهدتها »

\*\*\*

وقال الفيلسوف الفخر الرازي المتوفى سنة ست وستمائة للهجرة :  
« أنا عرضنا الأمانة أي التكليف وهو الأمر بخلاف ما في الطبيعة ، واعلم أن  
هذا النوع من التكليف ليس في السماوات ولا في الأرض لأن الأرض والجبل  
والسما كلها على ما خلقت عليه : الجبل لا يطلب منه السير ، والأرض  
لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ، ولا في الملائكة ، لأن الملائكة  
وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا ،  
فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشغل الإنسان بأمر موافق  
لطبيعته . . . »

قال الامام الفيلسوف فى تفسير حمل الأمانة : « لم يكن ابائوس كاباء ابليس فى قوله تعالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما ان هناك السجود كان فرضا ، وعاينا الأمانة كانت عرضا ، وثانيهما ان الالباء كان هناك استكبارا وهاهنا استضعافا : استضعفون أنفسهم ، بدليل قوله تعالى : « وأشفقن منها » ٠٠٠ وقال بعضهم فى تفسير الآية ان المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الأدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهايم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل . قالوا : والى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء » ، فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات ، والتكليف لم يكن الا على مدرك الأمرين . اذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هي مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فان كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فان المخاطب يسمى مكلفا كما أن المخاطب مكلف ٠٠٠ »

\* \* \*

وقال الامام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة : « ٠٠٠٠ عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : انى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها ٠٠ فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ٠٠ وما فيها ؟ قال : ان أحسنت جزيت وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ٠٠٠ وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم ، فكروا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ٠٠ »

« قال مجاهد وسعيد بن جبيرة والحسن البصرى وغير واحد أن الأمانة هي الفرائض ٠٠ ثم أورد الامام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحاحها ،

وعقب عليها قائلا انها كاذبا ، لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة الى انيا التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها »

\*\*\*

رجاء فى تفسير الامام الميرزا الخراساني المتوفى سنة ٩١١ للهجرة : « انا عرضنا الامانة ، الصلوات وغيرها ، مما فعلها منه الثواب وتركها منه العقاب . . »

\*\*\*

رقال الامام محمد جمال الدين التاسمى المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة :

« . . عبر عنها بالامانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى للمكلفين ، واثبتهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير اختلال بشئ من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الامانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام - التى هى مثل فى القوة والشدة - مراعاتها ، وكانت ذات شعور وادراك ، لأبين قبولها وأشفقن منها . . . أما قوله تعالى : وحملها الانسان أى عند عرضها عليه ، اما باعتبارها بالإضافة الى استعداد . أو بتكليفه أياها يوم الميثاق - أى تكليفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ، وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى . . وقوله تعالى : « انه كان ظالوما جهولا » اعتراض وسط بين الجمل وغايته للايدان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ، أى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل ، أى بحسب غالب أفراد الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة . . . »

\*\*\*

ونقل صاحب تفسير الجواهر زبدة هذه المعانى ، ثم نقل نفسير الفيروزبادى معنى حمل الامانة ، اذ قال : « فأبين أن يحملها . . . وحملها الانسان » أى أبين أن يخنها وخانها الانسان . قال : والانسان هنا هو الكافر والمنافق .

ولا نختم هذه المقتبسات قبل أن نعود الى الاستدراك الذى بدأناها به « وهو الاتفاق على معنى التكليف ، وان الاختلاف على المدام التى تترتب عليه انما هو الدليل على معنى الاستعداد الفطرى للمدام وما عداها ، أو على معنى الوقوع فى المذمة. بمجاوزة حدود التكليف ، ظلما مع العلم بها ، وجهلا مع القدرة على التعلم والاسترشاد فى أمرها \*

الا أن معنى الاستعداد الفطرى لا يخفى اذا روجت الآيات التى ورد فيها ذكر صفات « الانسان » بمعنى جنس الانسان فانه يذكر بهذه الصفات فى مواضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة ، فقد ذكر تكريم بنى آدم مع السلطان على البر والبحر والزرع والضرع والتفصيل على كثير من خلائق الله ، وذكر ظلم الانسان وجهله مع انفراده بالفطرة المستعدة للتكليف بين خلق السماوات والأرض ، وذكر فى غير هاتين الآيتين بقبوله للخير والشر مع الايمان بالجزاء والتذكير بخلق الليل والنهار وخيرات الأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذاك وفيه الاشارة الى أمثاله من الآيات :

\* \* \*

« وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَدْعِ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعَاهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَاجُولًا ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوِنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّمَن تَقَرَّبَ فَجَعَلْنَا مِنْ رَبِّكُم وَلَدًا لِّتَعْلَمُوا أَنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ وَحَسَابُ كُلِّ شَيْءٍ فَهَلْ نَاهُ تَفْصِيلًا »

« سورة الاسراء »

\* \* \*

فقد ذكرت هنا فطرة الاستعداد للخير والشر مع ذكر الايمان بالجزاء وتصريف الليل والنهار ، وعجلة الانسان على حساب العواقب وهو أهل للحساب ، حساب الشاهد والغائب ، وحساب النور والظلام وحساب السنين والأيام

## التكليف والحرية

من شروط التكليف طاعة وحرية ..

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين فى قضية القدر ، وفى قضية الايمان ، وفى قضية التكليف والجزاء ، فيقصرّون النظر على شرط الحرية ويهمّلون شروط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة ، وهى فى ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال فى فهم خلق الانسان .. فمن بحث عن الايمان بالتكليف غير ناظر الى شرط « الطاعة » فلا جرم يضل عنه ولا ينتهى فيه الى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا على الايمان ..

فى القرآن خطاب متكرر الى العقل ، وبيان متكرر لحساب الانسان العاقل على الخير والشر ، مع اسناد الارادة اليه فى استحقاقه للثواب والعقاب ..

وفيه آيات صريحة تسند الارادة الى الله ، وتقرر انه - سبحانه وتعالى - هو الخالق المقدر الذى يقدر الهداية والضلال ، ويعطى كل شيء خلقه وبهديه ، وهى آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وان لم تبلغ فى الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتفكير

\*\*\*

« فهى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهتدى من يشاء الى صراط مستقيم »

« سورة البقرة »

\*\*\*

« قل أمر ربي بانقسمت وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه »

مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون • فريقا هدى وفريقا حق عليهم  
الضلالة «

« سورة الاعراف »

\*\*\*

« سمع اسم ربك الأعلى • الذى خلق فسوى • والذى قدر فهمى »

« سورة الأعلى »

\*\*\*

« وما أرسلنا من رسول الا باسمان قومه ليبين لهم فيفضل الله من يشاء  
ويهلك من يشاء وهو العزيز الحكيم »

« سورة ابراهيم »

\*\*\*

« ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة  
ويفضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء »

« سورة ابراهيم »

\*\*\*

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل  
بغير معناها الظاهر على اختلاف العبارة والمناسبة ، فمعناها الظاهر الذى  
لا تأويل فيه ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذى يخلق عباده  
ويخلق ما يعملون

أفى هذا تناقض فى حكم العقل اذا نظرنا الى الأمر كله نظرة المعقول  
ولم نقصر النظر الى النصوص ، أو الى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه  
النصوص ؟ ..

ان الرجوع بالقضية الى أسسها المحتملة على كل احتمال ، ينفى

التناقض ، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد « حلا للمشكلة » من أسسه  
المفروضة جميعا ، وخروجا من التناقض الذي يلزمها على كل احتمال غير هذا  
الاحتمال . .

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أو يكن تركيبا عارضا من  
تراكيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر  
والارادة . .

وليكن التكليف ارادة من عند الله أو يكن ضرورة من فضاء الواقع  
لا يرتبط بها أمر ولا جزاء . .

فكيف يتصور العقل ارادة الانسان على كل احتمال ؟

انه لا ينصورها ارادة مطلقة من جميع القيود ، لأن ارادة انسان  
واحد تنطلق بغير قيد هي قيد لكل انسان سواء ، وكيف يأتي هذا الانسان  
الواحد بارادته المطلقة منفردا بها بين أمثاله المقيدين ؟ .

اما أن يوجد الناس جميعا بارادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه  
هي الاحالة العقلية في الفرض والتقدير ، قبل الوصول بها الى الابداع  
والتحقيق . .

فاذا كانت الارادة المطلقة هي ارادة الله ، فخلق الناس مكلفين بغير  
ارادة لهم شيء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له في  
هذه الحالة الا أن يخلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساوين في  
العمل الصالح الذي يساقون اليه ، كما تساق الآلات ، فلا فضل اذن  
للعاقل على غير العاقل ، ولا تمييز للانسان على الجماد المجرد من الحس ، فضلا  
عن الحيوان . .

فاذا وجب تكليف الانسان ، فالعقل الانساني لا يوجهه الا كما ينبغي  
أن يوجب على حالة واحدة لا سواها ، وهي حالة الارادة المخلوقة يودعها  
فيه الخالق كما ينبغي أن تودع ، وهي لا ينبغي أن تودع الا على هذا الفرض  
الذي يدعو اليه القرآن . .



ان الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون في احتمال العمل  
مدرك المميز الذي يهتدى باذن الله لما اختلفوا فيه

ولا يقال ان الحرية التي تخلق ليست بحرية .. فان الحرية غير القيد  
سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين ، وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم  
المادة عند التمييز بينهما كما تتمايز قيمة المعدن نفيسا وغير نفيس .  
وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فان مصنعا للآنية الذهبية والآنية النحاسية  
لا ينفي نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآيتين المصنوعتين

وليس في العقل شيء يسمى حرية مطبوعة ، تعمل على الحرية المخالفة  
بالانطلاق من جميع القيود .. لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير  
موجود ..



واذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أو وجدت لها ارادة ، فلنرجع الى  
العقل لنرى كيف يتصورها العقل — أى عقل — وكيف تكون على احتمال واحد  
دون كل احتمال ..

انها لا تكون سواء في كل انسان ، لأنها اذا امتنع فيها خلاف القوة لم  
يمنتع فيها خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغر  
والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

واذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هي شيء ، اذ ليست  
الموجودات التي لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هي عدم  
ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ،  
ولا ثواب ولا عقاب

فاذا وجد المخلوق حرا ذا ارادة فلا وجود له الا بهذا الاختلاف في حكم  
العقل كيفما كان حكم النصوص

وإذا قضى العقل بهذا دون سواء ، فالعقل هو الذى ينصور ارادة الله  
وارادة الانسان على احتمال واحد دون سواء . .

وحكم الايمان هنا وحكم العقل متماثلان ، اذ كان كل ما عدا حرية  
« الايمان » فرضا غير معقول ، بل غير موجود

\* \* \*

ونحن اذن فى حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى خطاب التكليف  
اذ كان المؤمن والفيلسوف معا يذهبان بالعقل بين نقائص الفروض ، فلا  
يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل  
واعتماد العقل على الايمان

وانما تساورنا الحيرة فى مسائل الايمان عامة من خطأ شائع يوهم أناسا  
من المندبين والمنكرين ان الايمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما  
يتقبله - اذا نقبته - وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتسأوى منه النظر  
وترك النظر ، بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع  
كل الامتناع

هذا ايمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا الى طرف التصديق بغير سؤال  
ولا انتظار جواب . . فاما عقل ولا تصديق ، واما تصديق ولا عقل : ضدين  
لا يجتمعان . .

\* \* \*

والفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى العقل ، والايمان الذى يعمل فيه  
العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهى وأين يبتدىء الايمان . .  
ان الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهماله  
وابطال وجوده . .

والعقل يستطيع أن يصل الى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة الى  
التصديق بالغيب المجهول . .

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان . لأن انكار هذه الضرورة  
نقيضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل الى  
الايمان بوجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة.  
هذا الايمان ولزومه - منطقاً - قبل لزومه لهداية الضمير

فالموجود الذي يصح أن نؤمن به هو وجود كامل أبدى ليست له .  
حدود ..

والموجود الذي ليست له حدود لا يحيط به ادراك العقل المحدود ..

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التي لا شك فيها ..  
هي احدى اثنتين .. اما انكار جزاف ، واما تسليم بحقيقة تفوق ادراك  
العقول ..

والانكار الجزاف يوقع العقل في نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أضل له  
من كل تعطيل ..

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد .  
للانكار ..

\* \* \*

ان الموجود السرمدي الكامل المطلق الكمال هو الاله الذي نريده  
بالايمان ، وهذا هو حقه في ايمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالموجود المطلق الذي ليست له حدود

أفبقول العقل اذن : « لا ايمان بهذا الموجود المطلق لأنه هو الموجود .  
الذي يصح في العقل أن نؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح في العقول ايمان .  
بغيره ؟ » ..

العقل لا يقول هذا ..

والعقل اذا قال بضرورة الايمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم يـ

يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل  
يزيد عليه إيمان . .

ان العقل الذى يزيد عليه الايمان ، هو العقل الذى خاطبه القرآن  
بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذى تعنيه النبوة بالتذكير والتبشير ، وهو  
المسئول أن يستمع الى النبى المرسل من عالم الغيب ، فلا معذرة له بعد حجة  
الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير

\* \* \*

ومع التسليم بهذا الوجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليفا غير  
التكليف الذى بسطته نصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا ان لم  
تكن فيه طاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء ارادة الخالق و ارادة  
المخلوق . .

## أسرة واحدة

خيل الى علماء القرن السابع عشر من الغربيين أنهم مطالبون بتغيير كتاب العلم من الألف الى الياء ، وان تعريف شىء من الأشياء فى عقائد القرون الوسطى كاف لرفضه ولإعادة بحثه ثم اعادته الى الاصطلاح بمدلول جديد

وأول هذه التعريفات المتبدلة تعريف الانسان حسب موضعه من هذا العالم ، لأن الانسان لم يزل فى كل عصر ، وفى كل علم ، وفى كل عقيدة ، مقياسا لما عداه من خلائق هذا العالم، بل مقياسا للعالم أجمع ، يتبدل النظر اليه كلما تبدل النظر الى الوجود بأسره .

لم يتبدل النظر الى مركز الكرة الأرضية من الأجرام السماوية . حتى خيل الى كثير من الفلكيين والجغرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الانسان ..

وقد أعيد النظر الى مكان الانسان من الخليقة كلها ، فوضعه علماء الحيوان بموضع واحد مع طبقة الأحياء التى عرفوها باسم الأوائل primates وهى فى الذروة من طبقات الحيوان اللبون

وأعيد « تصنيف » هذا النوع الحيوانى فذهب بعضهم بعيدا فى تقسيمه الى عناصر ، وإلى الرجوع بكل عنصر منها الى نوع من القرود الأوائل ، كما سيجىء فى الكلام على آراء النشويين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا انه نوع واحد لم يرتابوا فى تقسيمه الى « عناصر » أو سلالات تكاد – لولا التناسل فيما بينها – أن تعتبر أنواعا مستقلة بتراكيب أبدانها وعقولها ، بل قال بعضهم ان تجارب العلم لم تثبت امكان التناسل بينها ، ولم تنف امكان التناسل بين بعضها وبعض أنواع القرود المشابهة للبشرية ، ويجب أن نتمهل قليلا قبل التحقق من أن السلالات الانسانية

كلها قابلة للتوالد فيما بينها ، كما يتوالد ذكور الحيوان ، واناته من النوع الواحد بغير عائق للنمو فى دور الحمل ودور الطفولة . .

والذين قنعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الاختلاف . فمنهم من كاد يجعل السلالة « الآرية » نوعا « سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجى » فى الاختلاف وفى قابلية « التفاهم » والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار

وعادوا بعد الحرب العالمية الثانية الى التراجع السريع فى هذا . « التصنيف » الذى خيل الى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستغنى بالنظر عن البرهان ، وما كانوا ليسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الوبيل ، لانه التصنيف الذى سوغ لعنصر من العناصر أن يستبيح السيادة على الأمم عنوة ، وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التى لم يدخلها معه فى قرابة الانسان للانسان . .

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول ، كما جاء فى كتاب قرن من مذهب دارون : « ان التفرقة بين عناصر النوع الانسانى اعتساف أو توسع فى التعبير ، فقد نقسم النوع الانسانى الى عنصرين كبيرين يسكن أحدهما فى القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكتين ، ويسكن الآخر فى افريقية وبلاد الملايا والفسارة الاسترالية . فاذا أردنا المزيد من الحصر فقد نقسمها حسب الألوان الى بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وسمراء . ونزيد حصرا فنبلغ بها ثلاثين ، ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين الا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم » .

\* \* \*

فحرمى هذا ، ان فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التى تطلق على تلك الأقسام

\* \* \*

فحوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان - علما ودينا - فى موضعه الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح انه « ابن ذكر وأنثى » وانه ينتمى بشعوبه وقبائله الى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الاخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى ..

\*\*\*

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير »

سورة الحجرات .

\*\*\*

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود ، وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها اله واحد : هو رب العالمين

\*\*\*

فاذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل كما جاء فى الآية الشريفة ، فانما كان هذا التعدد أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتعريف « الانسانية » كلها بأسرار خلقها .. فان تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعى والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأزمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التى تنفتح عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة . فينتج عن هذا ما لابد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين النقافة ، وتزداد « الانسانية » عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا بخالقها ، واقترابا فيما بينها ، وتضطر اليه اضطارا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبا الى بعيدها .

\*\*\*

« ومن آيات خلق السماوات والأرض واختلاف السمكتكم وألوانكم ، ان فى ذلك لآيات للعالمين »

« سورة الروم ، -

وهذا هو حكم القرآن في وحدة بنى الانسان ، وفي تدعيم هذه الوحدة ، بما يحسبه الناظر المتعجل بابا من أبواب الافتراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

\* \* \*

« وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون »

« سورة يونس »

\* \* \*

« كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »

« سورة البقرة »

\* \* \*

« ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين »

« سورة هود »

\* \* \*

« ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات »

« سورة المائدة »

\* \* \*

ان هذه الوحدة في صلة الانسان بالانسان مشدودة الازر بالوحدة بين الناس كافة في الصلة بالله - ربهم ورب العالمين - الذى يسوى بينهم ويدينهم بالرحمة والانصاف ، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه الا بقسطاس العدل ، أيهم أحسن عملا وأقرب الى التقوى واستباق الخيرات :

\* \* \*



« والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم »

« سورة البقرة »

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد • فمن كان  
يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »

« سورة الكهف »

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

« سورة الأنبياء »

« قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون »

« سورة الأنبياء »

\* \* \*

ولقد كان من الحق في ذمة العلم أن يترى علماء المقابلة بين الأديان  
طويلا ، عند هذه المرحلة العظمى في تاريخ العقيدة ، وفي تاريخ الفكر ، وفي  
تاريخ القيم الأخلاقية ، بل في تاريخ الحياة الإنسانية من مطلعها في ظلمات  
الماضي المجهول الى هذا الأوج السابق الذي ارتفعت اليه بعد ألوف  
السنين ، وما كانت لترتفع اليه بعمل ولا عقيدة غير العقيدة في رب واحد  
هو رب العالمين ..

انها لم تكن كلمة في موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات التقديس  
بديلا من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من غير رام على لسان ناسك ذاهل يقول  
في تسبيح المعبود كيف يقول ..

انها لم تكن لفظة من لفظات الساعة ، تهيم بالنظر الشارد في تيه من  
السحر والكهانة ، ثم لا تبال أن تعود الى خلفها كما تعود الى أمامها ، على غير  
هدى ..

لو كانت كذلك لذهبت في غمار الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظ-  
بها أو استمع اليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قبلة يستقبلها الانسان على سواء ثم يكن بالغه لـ لم  
يعتدل اليه فى مطلع الطريق ، وهيئات - على غير هذه القبلة - أن ينتظم  
للانسان مسلك معقول الى الرشيد والضمير ..

ان قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الايمان برب هو رب هذا  
القبيل أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبائل لا يختارها وشعوب  
لا ينظر اليها ..

وان هذه القيم لغو عند اناس يحقق بهم الذنب وما اقترفوه ، ويهبط  
عليهم الغفران وما صعدوا اليه ويتقبلون بين النعمة والنعمة بغير جريرة من  
اثم وبغير شفاعاة من توبة ، وبغير نية للإساءة ولا نية للتكفير ..

ان العالم الانساني كلمة غير مفهومة عند من يدب برب غير رب  
العالمين ، وان قيم الأخلاق كبل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات  
والسيئات وبين الثواب والعقاب ، وان « الانسانية » الجامعة شيء لا وجود له  
قبل أن يوجد « الانسان المسئول »

وانما توجد « الانسانية الواحدة » ويتساوى الانسان والانسان مع  
الاله الواحد الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أتقاهم  
وأصلحهم وأسبقهم الى الخيرات

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير ..

وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على النهوض بالنبعة ،  
وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان « الانسان »

ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين ؟

لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ماهى هذه التقوى ، وعلموا حقا ان

موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه « النقوى » التى يحسبونها « تسبيحة » من تساييح المعابد ، ويخيل اليهم أنها أفضل من أن تدفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل . . فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات

هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر ، ولذكى على الغبى ، وللقادر على العاجز ، وللمهذب على الغدوم ، وللمجودود على المحروم ، وللعنى على الفقير ، وللسيد على العبد ، وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل - بالايجاز - على كل مفضول

وما من ميزان ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ، الا خذلهم فى طائفة غيرها . . بل فى أكثرها وأحوجها الى الموازنة والتفضيل

فليست « جملة » الانسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء أو الراشدين على القصر ، أو الأذكياء على الأغبياء ، أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على المفضولين . فان العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مرأ . . ولكنه قد يؤب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل راجح وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلائق والعادات ، ولكننا اذا حكمنا بأن انسانا يفضل انسانا بالقدرة على التبعات ، فهو الراجح لا مرأ فى كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الانسان ، وكل قيمة تحسب للانسان فهى داخله فى هذا الحساب ، فان جاز أن تهمل ويبقى الانسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهمة حقا ولو كان لها شأنها فى غير هذا الانسان . .

\* \* \*

« ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

\* \* \*

صدق الله العظيم ٠٠ انه لهو القسطاس الذى ينشئ « للانسانية »  
 حقوق المساواة بين أبنائها دينا وعلما وفلسفة وشريعة والهاما من الوحي  
 الالهى وتمحيصا من البديهة الانسانية

ومكان الوحي الالهى فى هذه المساواة انها قد شرعت للانسان شريعتها  
 حقا من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم  
 واجراء من « اجراءات » السياسة فى ابان الخطر المطبق ، خيفة من ثورة  
 النفوس وتنافسها على عدد الأصوات فى معارك الانتخاب ٠٠ فان أحدا ممن  
 حولهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها ، ولم يكن لينالها قبل أن تنزل عليه  
 من وحي رب العالمين ٠ ولكنها لم تنشأ فى حضارة من حضارات العالم  
 القديم أو الحديث الا كان وراءها حيلة أو وسيلة سياسية أو مراوغة  
 تمليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ،  
 وحروب الأمم فى القرن العشرين ، لما سمع « ديموس » بشيء يسمى  
 الديموقراطية ولا رضح « الديموقراطيون » المتأخرون بشيء لذوى المعاول  
 والمناجل أو لذوى الألوان المجتدين للمصانع والمعسكرات ٠ ولا سمع  
 العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل  
 الصالح وتقوى الله

## آدم

- قصة آدم عليه السلام فى القرآن هى قصة الانسان الأول ••
- خلق من تراب •• وارتقى بالخلق السوى الى منزلة العقل والارادة •
- وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض ، من ذى حياة وغير ذى حياة ••
- وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبه لارادته وانتصارا لعقله على جسده ••
- وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفىها القرآن فى هذه الآيات :

\* \* \*

« ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين »

« سورة المؤمنون »

- « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم • الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين • ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين • ثم سواه ونفخ فيه من روحه »

« سورة السجدة »

- « واذا قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حماء مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون • الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين »

« سورة الحجر »

- « واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال :

انى أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا : سبجناك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم • قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فاما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون • واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابنى واستكبر وكان من الكافرين • وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فآذناهما الشيطان عنها فآخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبسح هدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • • »

« سورة البقرة - »

\* \* \*

هذه قصة « نشأة آدم » فى القرآن • •

وهى احدى قصص الخلق والتكوين ، وفى هذه القصص جميعا من أمر الغيب ما هو حق الايمان ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه خطاب العقل ، ويتقبله بعلم منه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة أو العلم « بالقيم » العليا فى حياة الانسان وسائر الأحياء

ولباب القيم جميعا ان الفضيلة العليا ارادة وتجربة ، وليست منحة يبطل فيها التصرف ويمتنع فيها التمييز • •

فاذا جردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولكنه يحسن ويعجز عن الاساءة لأنه مصروف عنها ، ومخلوقا تأتى منه الحسنة كما تأتى منه السيئة لأنه لا يميز بينهما ولا يريد هما ، ومخلوقا تكلفه الحسنة جهدا ويريدها لأنه يعرف فضلها ويصبر على المشقة فى سبيلها ، فنحن قد ذهبنا بالتصور غاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما فى الأرض والسماء من خليفة ذات حياة أو غير ذات حياة • •

وعلينا أن نؤمن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من تاريخ  
الانسان ، وذلك هو المدى الذى نطلع منه على « سياسة الخلق والتكوين »  
على كل صورة من الصور مرة أخرى فى احتمال العقل ، أو فى احتمال  
الفرض والتقدير

اننا نعلم من سياسة الخلق ان الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية  
قبل نشأة الانسان ، فكادت أن تبلغ مبلغ الجبال الصغار وثقل بعضها  
وزنا حتى أربى على مئات الأطنان ، ثم فنيت لأنها قصرت عن ملكة التدبير  
التي تروض بها هذه الأجسام الضخام . ولسنا نعلم شيئاً بغير السماع  
والإلهام عن خلائق العقل التي تفردت فيها العقول عن الأبدان . .

والعقل الانسانى يأبى أن يصدق ان هذا الكون خلو من معدن العقل  
الا أن ينبت عرضاً فى جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الانسان

أقرب الى تصديقه — ولا نقول أقرب الى ايمانه وكفى — أن سياسة  
الخلق والتكوين تصرفت فى مقادير العقول ، كما تصرفت فى مقادير الأبدان  
الى غاية ما تبلغه من الضخامة بمعزل عن العقل وعن فضائل التمييز . .

تلك سياسة الخلق التي أذنت للكائنات العاقلة فى عالم الروح أن تعلم  
مداهها من الرقى فى معارج الحياة ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة  
الجديدة التي تنفرج عنها أستار الغيب ، ويودعها الخالق هذا الكيان  
الموسوم بالانسان . .

ومن بديهة الايمان أن تدع للدين حقه فى تبليغ هذه النشأة الى المؤمنين  
بالغيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من  
تعليم . . ان النشأة الآدمية فى القرآن هى طريق الحياة من الأرض الى  
السما ، أو هى طريق الكائن الحى من المادة الصماء الى الخلاق الحكيم .

ولا يأبى القرآن على مؤمن به أن يترسم مسلك الحياة من المبدأ الى  
المصير على هذا الطريق الخفى البين ، فانه لعل الجادة فى كل مكان يردّها  
الى الأرض ولا يقطعها عن الله

هـ - الانسان فى القرآن الكريم .





الإنسان  
في مذاهب العلم والفكر



## عمر الإنسان

نبدأ هذه الفصول عن الإنسان في مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الإنسان في هذا العالم ، لأن تقدير الزمن الذي مضى على ابتداء حياة النوع الانساني مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب ، ولا سيما مذهب النشوء أو التطور ، وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا ، في تقرير مكان الإنسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء

ونرى ان هذا المذهب أول المذاهب التي يتعين بحثها هنا ، لأنه أخرى ان يسمى « مذهب مذاهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذي يقصر على موضوعه الأصيل ، فانه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون بإعادة النظر في موضوعاتهم للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده ٠٠ فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أبواب شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعا للقوانين أو النظريات التي جاء بها النشويون ٠٠

وسنبسط القول في هذا المذهب على وجه خاص على قدر المستطاع في حيز هذه الرسالة ، لأنه - على كل فرض من الفروض - دعوى في قضية الإنسان يستمع اليها ولا تهمل كل الاهمال ، ولو اعتقد الناظر فيها - كما نعتقد - أنها تقوم على آراء لا تلزم منها النتيجة التي وصل اليها النشويون لزوم الختم ، ولكنها معلقة الى حين ٠ ولنبدأ بالكلام فيما يلي عن عمر الإنسان بتقدير العلوم العصرية ، ولا تناقض بين شيء منه وبين شيء مما ورد في آيات القرآن

لم يوجب القرآن على المسلم مقدارا محدودا من السنين لحلق الكون

أو لخلق الانسان ، ولا نعلم ان ديانة من الديانات الكبرى التى يؤمن بها أبناء الحضارة عرضت لتاريخ الخليفة غير الديانتين البرهمية واليهودية

والديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من السنين ، لأنها تقول بالدورة الأبدية التى تتكرر فيها حياة الانسان مع حياة الكون بغير أجل معروف فى البداية أو النهاية . وعند البرهميين أن الكون فلك كبير ، يتم دورته المتكررة مرة فى كل ثلثمائة وستين ألف سنة . وقد يزداد هذا القدر أو ينقص فى تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للدورة الشمسية ، وهى عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى . وكلما انتهت دورة بدأت أخرى من دورات الوجود السرمدى عودا على بدء الى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهى على حسب تحقيق الفقيه الكبير « جيمس يوشر » المتوفى سنة ١٩٥٦ ، تدل على ابتداء الخليفة فى شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد . وقد شرح أسانيدته التى بنى عليها هذا التقدير فى كتاب ضخيم سماه السجلات القديمة والعهد الجديد  
Annales Veteris et Novi Testamenti

وأضيف هذا التاريخ الى نسخة التوراة التى ترجمت على عهد الملك « جيمس » ، وبهامشها تواريخ الحوادث المذكورة فى متونها

وظل هذا التاريخ معتمدا فى طبعات التوراة المنقولة عن هذه النسخة الى العهد الأخير . ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهود ومسيحيون على تقدير السنين والأيام التى وردت فى صدد الكلام عن الخليفة بمقادير غير مقادير السنين والأيام الشمسية ، واستندوا الى أن اليوم الشمسى وان السنة الشمسية تساوى مدة دوران الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليفة الستة يوما شمسيا لأن الشمس نفسها خلقت فى اليوم الرابع كما جاء فى الاصحاح الأول من سفر التكوين .

« وقال الله : لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل

وتكون آيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوارا فى جلد السماء لتنير على الأرض . وكان كذلك . فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوما رابعا »

\* \* \*

وانقضى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب ، من مباحث الدين أو العلم ، شئ يدعوهم الى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرنا بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة بالقياس الى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالسنة الضوئية وتحققوا من النظر اليقين الى بعض الكواكب انهم يرونها الآن بعد أن مضت على انطلاق الشعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد السيد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وإبراهيم الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان ينمو على الأرض قبل مئات الآلاف من السنين ، وقامت تقديرات العلم فى قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محققة لا تقل ثبوتا عن قياس الساعات بحركة الرمل أو الماء فى الساعات الرملية والمائية ، لأنهم يبنون هذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشعاع المعدنى أو مدى الوقت اللازم لتحول العناصر ، وأمثال ذلك من المعايير التى تصلح للقياس عليها. كما يصلح العلم بمقدار الرمل أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه فى صندوقه قياسا لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور

وقد اشتركت العلوم جميعا فى اتخاذ مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات ، فقام النباتى عمر الشجرة بحلقات جذوعها ، وقاس الطبيعى أعمار البحار

بمقادير الملح الذى أفرغته الأنهار فيها ، وقاس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب ، أو باشعاع العناصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها معايير معقولة ، توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا الى دهور محسوبة بمئات الألوف من السنين ، وتمعن أحيانا فى القدم حتى تحسب بمئات الملايين.

\* \* \*

وأحدث المقاييس العلمية التى تقاس بها عصور ما قبل التاريخ مقياس الكربون المسمى بكربون ( ١٤ ) تميزا له من الكربون ( ١٢ ) المسمى بمقدار وزنه الذرى ٠٠ فان العالم الأمريكى « ويلارد ليبى » Wilard Libby صاحب الدراسات المأثورة فى الطبيعيات الذرية ، وجد - قبيل منتصف القرن - ان نصف ذرات هذا الكربون تتحلل فى الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة الى الزيادة أو النقصان ، فاذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجرى ، فمن الممكن وزن ما فيها من كربون ( ١٤ ) وتقدير الزمن الذى انقضت فيه حياة الكائن الحى الذى تخلفت عنه تلك البقايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فاذا كان هذا المقدار نصفاً ، فقد مات ذلك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، واذا كان ذلك المقدار ربعاً فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألف ومائة وست وثلاثين سنة ، ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون ( ١٤ ) بالمقابلة بينه وبين الكربون ( ١٢ ) مع ذلك الفارق القليل الذى يحسب فيه الحساب لحظاً التقدير ٠٠

وبهذه المقاييس الكثيرة التى تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالى بالساعات الرملية والمائية - قفل تاريخ الانسان على الأرض راجعا الى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية ، وقدرُوا للطبقة الحجرية ثلاثة

أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائه ألف سنة ، وتنسب الى الطبقة العليا بقايا الانسان التى وجدت فى الاقاليم الغربية من القارة الأوربية ، والى الطبقة الوسطى بقايا الانسان التى وجدت فى القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلها فى القدم أو أقدم منها بقايا الانسان فى أقاليم الجنوب الأفريقية

وآخر البقايا الانسانية التى وجدت فى القارة الأفريقية جمجمة ، وجدها الدكتور « ليكى » Leakey - فى شهر يوليو سنة ١٩٥٩ - ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم فى صيدها أسلحة حجرية وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى « أولدفاي » بتنجانيقا وسمى هذا الانسان باسم علمى معناه الانسان الزنجى *Zinjanthropus* ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب « كاسر الجوز » لضخامة فكّه وضروسه ، ويقدرّون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجر وزمن تكوين الطبقة وزمن التطور فى تركيب العظام وزمن البقايا التى تخلفت من عظام الفك والأسنان

وليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم الى كل تلك الآلوف من السنين ، ولكن المحقق أن يقالها الى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب فى أقيسة الزمن أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية ، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضاربة بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان انسانيّتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصّة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للإرادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع

الانسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لاصابة الحيوانات الضارية من بعيد . .

\* \* \*

أما الانسان في مجتمعات الحضارة فلم ينكشف ، بعد ، أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ونعني بانسان الحضارة ذلك الانسان الذي عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان كما سخر العناصر الطبيعية في مصالحه المشتركة . وقد وجدت في وادى النيل آثار الانسان المقيم الذي كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض في تدبير طعامه وأسباب معيشته ، ولكن المتفق عليه أن هذا الانسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب الى الطلاسم السحرية أو الى أشكال الزينة ، وانها - على هذا - لتعتبر مقدمة لازمة نشأة المزايا التي تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام في ميدان تنازع

\* \* \*

وليس لنا أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد في حياة الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكنها روايات لا تهمل في صدد الكلام عن تاريخ الانسان ، وليس لنا كذلك أن ننقضها بغير دليل

كان هيرودوت - الملقب بأبى التاريخ - يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروى في كتابه الثانى عن كهنة الفراعنة انهم يقدرّون تاريخ الدولة من عهد ملكها الأول بثلاثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أى بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن مواقع بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهذا الزمن قبل عصر هيرودوت في مراقبة فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية في التقويم القديم وهذه السنة الشمسية في تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف وأربعمائة واحد وستين سنة ، ولا سبيل الى ادراك هذا الفرق في أمة تجهل الرصد



والتسجيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور فى تاريخها الطويل (١)

\* \* \*

ومما يذكر ، ولا يهمل ، فى صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التى سماها القارة الأطلسية ، وذكرها فى كتابين من كتبه المحفوظة هما كتاب « تيمائوس » Timaeus و « كريتاس » Critis وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا فى الحضارة تقدما لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غاصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل العصر الغابرة التى يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبون أنها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية ، وقد بحث طلاب الأسرار فى مجازاتل الماضى المدثور عن موقع القارة المفقودة فرجع عندهم أنها كانت فى موضع المحيط الأطلسى بين شماله ووسطه ، وأنها زالت فى إحدى الكوارث الكونية التى قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منيا الا بعض الجزر البركانية

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلقبت من عناية الاخلاف اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم الجديد كما يتمناه

الا أن الغالب على المحدثين أن يتبعوا فى هذه الرواية منهجهم « التقليدى » فى كل رواية ، تخلفت من العصور الأولى وانتقلت الى العصور الأخيرة مع أساطير الأقدمين ، فحسبوها جملة واحدة فى عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له مسوغاته القوية فى مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون الوسطى ومطالع الكشف والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة العلمية خلى أن يوطد الاقدام على بر الأمان ، ويسمح للباحث بالتردد فى الإنكار كما سمح له من قبل بالتردد

(١) يرجع الى كتاب فيلوكونسكى Velikovsky عن العواصف المتصادمة

فى القبول ، بل بالتعجل الى الرفض بغير حجة ولا موازنة بين مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشوف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير قد أقنعت أكثر الباحثين بأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه - عقلا - من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم يقدّم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات

وإذا حق لهذه « الأسطورة » أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من شفاعاتها الحديثة التى تزكى تلك الشفاعة الموقرة أن المحيط الأطلسى ينبئ الباحثين المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه الغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل المواقع المنهارة على امتداده طولاً وعرضاً بازاء قارات العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشوف الأثرية فى السنوات الأخيرة قد خرجت بأساطير القارات المفقودة من عالم الأسرار الى عالم الآثار وطالعتنا باسم قارة جديدة فى محيط آخر غير المحيط الأطلسى ، ولكنه يقابله فى الموقع ويشبهه فى الظواهر والأغوار ، وتلك هى قارة « مو » Mu التى ألفت عنها الكولونيل جيمس شرشموارد Churchivard كتابيه باسم « قارة مو المفقودة » و « أبناء مو » وروى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ يرجع بها قدما الى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد ، ويعزز دعواه برموز وإشارات يفسرها بمعانيها اللغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل الأفكار بالعلامات والخطوط

وعلى عهدة المؤلف ننقل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقتبسة من مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه :

« ان قارة « مو » كانت قارة واسعة تقع فى المحيط الهادى بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها الى الجنوب قليلا من خط الاستواء ٠٠ ويقدر طولها من الشرق الى الغرب بستة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثنى عشر ألف سنة ، فابتلعتها لجج المحيط وغاص معها الى قراره نحو ستين مليون انسان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التى يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبورمة والتبت وكمبوديا وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهدت فى جزر المحيط الهادى ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتواتر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المثرامية على أرجاء الكرة الأرضية . وقد خطا الانسان خطواته الأولى فى سبيل التقدم والمعرفة قبل نحو مائتى ألف سنة ، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال الى شأو من الحضارة لم نصل اليه حتى الآن فى حضارتنا الراهنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من خمسة آلاف سنة وهى مرحلة قصيرة بالقياس الى الشأو الذى يدركه الانسان العاقل بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهند الى بابل ومصر آلا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغريقة ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد فى بعض تفسيراته على كهان المحاريب البرهمية وعلى حلول الطلاسم التى انتهى اليها قراء الكتابات القديمة على آثار المغرب والمشرق ، ومنها آثار المايا وآثار الفراعنة ٠٠ ويقول المؤلف انه لم يأت برأى من عنده فى كل ما بسط القول فيه من أخبار تلك القارة ، ولكنه رأى ما يراه كل قارئ لتلك النقوش والرقوم يتقبل طريقة حلها كما شرحها مشفوعة بأسانيدها وبالأدلة التى تؤكد معانيها ، وقد ثبت له من تلك الأدلة أن بعضها يمتد فى الأزمنة الماضية الى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار التى نقلت من قارة « مو » نفسها جد قليلة ، وغاية ما أمكن العثور عليه من الآثار المتصلة بها أثران رمزيان مصنوعان من البرنز ، يرجع

تاريخهما على الأقل الى نحو عشرين ألف سنة اذا كانا من مخلفات الحضارة التي بقيت على أرض القارة الآسيوية بعد الزلزال وقبل الطوفان ، وقد يرجع الى آماذ أبعد من ذلك جدا اذا كانا من مخلفات « مو » التي نقلت الى بلاد القارة الآسيوية . . .

\* \* \*

والجديد في قصة هذه القارة كما رواها مؤلف كتابي القارة المفقودة وأبناء « مو » ، أنها تحدثنا عن الانسان « المتدين » في تلك العصور السحيقة ، وأنها تصف لنا هذا الانسان « مخلوقا » مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصة التدين وبين هذه المزية التي تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشويين الذين جعلوا الانسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد ألم المؤلف بمشابهات عارضة بين مجمل الكلام عن الخليفة ، وعن نكبات الانسان في العصور الغابرة ، كما جاءت في الآثار الأولى وفي كتب الأديان الباقية ، وغاية من ما نقوله عن توكيدات المؤلف وتخميناته معا ان مسألة الانسان المتحضر قبل عصور التاريخ ليست مما يهمل في سياق عرض لتاريخ النوع الانساني ولمكان الانسان من كتب الدين

## الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقتان : منهم من يعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على عالم الكائنات العضوية التي تشتمل على النبات والحيوان والانسان ، ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية . .

والقائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الايمان بالخالق ، في كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولا مناص لهم من التعرض لهذه القوى برأى من الآراء . .

فالذين يقصرون التطور على الاحياء ، يرجعون في تعليل تطورها الى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يضطرونهم القول بهذا التطور الى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو انكار . . فقد تكون عوامل الطبيعة في مذهبهم خاضعة لقوة عالية فوق الطبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه السؤال عن القوة التي تملك تسيير هذا الكون منذ الأزل الى غير نهاية ، ولا بد للقائل بتعميم التطور من الفصل في مسألة البداية والنهاية . . وهي لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق في جملتها

فاذا كان تطور الاحياء يرجع الى عوامل البيئة الطبيعية ، فماذا خارج الكون كله يرجع اليه تطور الكون منذ البداية الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التي لا أول لها ولا آخر اذا قيل ان الكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ؟

ان أشهر القائلين بالتطور العام هيربرت سبنسر ( ١٨٢٠ - ١٩٠٣ ) ،  
الذى عرف التطور بأنه انتقال من البسيط الى المركب ، وقال عن تطور  
الحياة أنه توفيق دائم بين مطالب البنية الحية وبين ظروفها الطبيعية ، ولهذا  
يحدث التغير للبنية ثم يحدث لها التوسع والامتداد ، وتترقى فى وظائفها  
تبعاً لاتساعها وامتدادها ..

وقد عرضت له قضية البداية الأولى ، فلم يدخلها فى حدود الطبيعة ولم  
يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية الى قسمين بالنسبة  
الى المعرفة الانسانية : أحدهما حقائق الأشياء فى ذاتها وفى أصولها  
الأولى وهى القسم الذى لا يدرك ولا يتقبل الإدراك بالأساليب العلمية ،  
والآخر حقائق الأشياء فى ظواهرها المحدودة وهى التى يستطيع عقل  
الانسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيها عمل التطور  
إما باستخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه  
المشاهدات على حسب تلك الأحكام

وأصحاب هذا رأى من القائلين بالتطور العام - على تردهم فى  
مسألة الأصول الأولى - لا يتجاهلون هذه الأصول ، ولا يفوتهم أن  
القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا الى المؤثرات الكونية التى  
تصدر منها الآثار المتغيرة وتفسر لنا أسبابها ، وان اطلاق القول بالتطور  
من مبدأ الكون غير تخصيص التطور بالكائنات العضوية وتفسيره بالرجوع  
الى العوامل التى تحيط بتلك الكائنات وتفعل فعلها أو تنفعل معها  
بمشاركتها ، ولكن أصحاب التطور العام على مذهب سبنسر يسلّمون  
بتلك المؤثرات الكونية ويشركون البحث فيها عجزاً عن الوصول الى  
النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الانسانية عند الآثار التى يدركونها ويحجمون  
عما وراء ذلك ، فيسلّمونه فى عداد « المجهولات » التى لا تدرك بالحواس  
والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العام الذين لا يذهبون مذهب سبنسر فى تقسيم  
المعرفة الانسانية بين مدرك وغير قابل للدراك ، وهو قبل ذلك مذهب  
الفيلسوف الألفوسى هاملتون ( ١٧٨٨ - ١٨٥٦ ) ومذهب الفيلسوف

الألماني عمانويل كانت ( ١٧٢٤ - ١٨٠٤ ) فى الظواهر والحقائق أو فى الأشياء كما تحس وتدرك ، والأشياء فى ذاتها .

فأصحاب التطور هؤلاء فريقان ، يقفان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين . وتفسير هذه الأصول عند أحدهما - وهو فريق المؤمنين - أنها من صنع الخالق الحكيم ، وإن القوة التى تصدر عنها آثار التطور فى الكون كله منذ بدايته لابد أن تكون « قدرة » فوق الطبيعة وفوق الكون تودعه ما تشاء من النظم والنواميس

والفريق الآخر - وهو فريق الماديين المنكرين - بكتفى من التفسير يذكر العوامل التى ينسب إليها التأثير واعتبارها طبيعة فى المادة لا تفسير لها إلا أنها وجدت هكذا . ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التى وجدت عليها

فاذا احتاج الفيلسوف المادى الى القول بالحركة الدائمة ، قال انها عادة المادة فى أصل تكوينها ، واذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال ان المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، واذا لزمه بعد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض . فهذا القول عنده هو وصف للواقع وتفسير له فى وقت واحد ، وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان الغاية المرسومة والنتيجة المقصودة ، ولكن الفيلسوف المادى يحسب أنه فرغ من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة الغاية المقصودة . وليس عند الفيلسوف المادى تفسير لهذا التعدد الهائل فى ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة . وليس عنده معنى لهذا التقدم أو غاية يتقدم إليها غير انقضاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التأخر والتقدم ، أو بين الهبوط والارتقاء .

وكل هذه الفلسفة المادية تتلخص فى كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شئ فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الجاهل

الذى تسأله عما وقع أمامه فيقول لك : « وقع وحده » ولا تفهم منه علة لوقوعه أوضح من قول المادى الفيلسوف ان المادة تتغير لأنها متغيرة ، وتنتقل من البساطة الى التركيب ومن النقيض الى النقيض لأن ذلك كله من طبائعها . . ولولا أن المادى الفيلسوف يقرر مذهبه فى التطور ليصل منه الى نتيجة فى المستقبل يوجبها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العام وسكوته عن تفسيره . . ولكنه لو اختار أن يتنبأ بنتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من طبائع المادة وطور من أطوارها لما كانت حجته فى احدى النبوءتين بأقوى من حجته فى الأخرى

\* \* \*

والقائلون بتطور الكائنات العضوية ، ممن يقصرون القول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات بمليون - على الأغلب الأعم - الى القصد فى التفسيرات والتعليقات ، ويتجنبون البحث فى الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعى الحديث

وخلاصة مذهبهم أن أنواع الاحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وانها ترجع جميعا الى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هى الخلايا البدائية . .

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأيا حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذاهب النشوئين العصريين على العموم ، ولكنه رأى قديم قال به فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب كما سنبينه فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب ، وانما الجديد منه اسناده الى أسباب العلوم الطبيعية التى شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وابتدأ القول به مع ابتداء البحث العلمى على مناهج العلماء المحدثين . .

قال به العالم النباتى السويدى كارل لينوس ( ١٧٠٧ - ١٧٧٨ )



Carl Linaeus الذى عنى بتصنيف الأنواع والابتناس فى دراسته للنباتات  
وبنى على هذا التصنيف رأيه فى أنواع الاحياء على التعميم

وقد كان لمباحث هذا العالم أثر واسع فى البيئة العلمية الانجليزية .  
فانشى المجمع اللينى فى لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة اليه

وقال به بوفون العالم النباتى الفرنسى ( ١٧٠٧ - ١٧٨٨ ) Buffon  
الذى ألت كتابه المنصل عن التاريخ الطبيعى بمعاونة الأستاذ دربنتون  
Daubenton وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأيا يمانله فى  
تصنيف أنواع الحيوان .

وكان من المعاصرين لهذين العالمين اراسموس دارون Erasmus Darwin  
( ١٧٢١ - ١٨٠٢ ) جد دارون الذى ينسب اليه مذهب النشوء والتطور ،  
فكان رائدا لطفيده فى القول بالتقارب بين الانسان والحيوانات العليا ،  
وعاش معه فى عصره العالم الفقيه الايقوسى لورد منبودو ( ١٧١٤ - ١٧٩٩ )  
Lord Monboddo احب كتاب « أصل اللغة وترقيتها » وكتاب ما وراء الطبيعة  
فى العصور القديمة ٠٠ » ومذهبه فى تطور الانسان ظاهر من بحثه عن  
الأسباب الطبيعية لتطور اللغة ، وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة  
عند الأقدمين ٠٠

وتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعى  
فى القارة الأوروبية من شمالها الى جنوبها كان قد تهيأ لدراسة الحياة  
والاحياء على أساس الوحدة فى قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصورا  
على السويد وفرنسا وانجلترا ، بل صح من روايات مؤرخى العلوم عند  
الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول بها على نحو من الأنحاء ،  
وان كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخلة الفخر بالسبق العلمى  
بين الأمم الأوروبية

ولكن مذهب النشوء لم يعرف بتفصيله قبل العالم الفرنسى لامارك  
( ١٧٤٤ - ١٨٢٩ ) Lamarck ثم العالمين الانجليزيين : شارل دارون

( ١٨٠٩ - ١٨٨٢ ) وزميله ألفريد رسل والاس ( ١٨٢٣ - ١٩١٣ ) وعلى مباحث هؤلاء العلماء الثلاثة يقوم على أساس مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين في اعتبار العلماء الى اليوم

وكل من لامارك ودارون ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها الى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على الصفات والوظائف التي تنتقل بالوراثة متى تغيرت في تكوين الأفراد . .

ففي رأى لامارك ان أعضاء الجسم الحى تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطاريء من طوارئ المرض والاصابة ، وان الصفات المكتسبة التي تنولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذى لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض انها - لطول قوائمها - كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول في أعقابها المتوالية

والنشوئيون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستدلون على بطلان هذا الرأى ببعض الصفات المكتسبة التي شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثى في الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعناقهن بالأطواق العريضة يضعن طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من الطول غاية الاحتمال ، ولا تزال بناتهن يولدن بأعناق لا تزيد فى طولها على أعناق البنين الذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثرا وراثيا بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، ويشاهد مثل ذلك فى ذرية الحيوان الداجن التي تعود المدجنون له أن يقطعوا أذنا به أو يستأصلوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأعضاء آبائها وأمهااتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها

ويرى النشوئيون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذى مر على هذه المشاهدات - بالقياس الى الآماد الطوال التي

مرت على تطور الأنواع الحيوانية - لا يكفي للجزم بامتناع الوراثة على إطلاقها ، وإن اهتمال الأعضاء بالقطع ليس من شأنه - ضرورة - أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالاهمال ما يحدث أثرا فى قوام البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها

ويلجأ النشوئيون - على رأى دارون ووالاس - الى تعليل آخر لحدوث التحول فى الأنواع ، فيعللونه بالانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى . مع القول بتنازع البقاء لزيادة المواليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها . .

فالزرافة - عندهم - لم تنقل صفة مكتسبة الى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما وفيها تفاوت فى الصفات كما يتفاوت الأفراد فى جميع الأنواع ، وبقي أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلغ أعالي الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعى عمله فتبقى ذرية الزراف الطوال العنق وينقرض ماعداها ، ويعمل الانتخاب الجنسى عمله - مع الانتخاب الطبيعى - لأن الأفضل من ذكور الحيوان واثاته يفضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تشبهه فى الامتياز على سائر الأفراد

وليس مثل الزرافة فى رأى دارون بأسعد حظا من هذا المثل فى رأى لامارك ، لأن المعارضين عليه يقولون ان قلة الورق على فروع الشجر السفلى يبيد صغار الزراف كما يبيد أنواع الحيوان التى تعيش مثله على العشب أو على الشجر القصار ، وإن ذكور الزراف أطول أعناقا - فى الغالب - من اناثه ، فهى خليفة ان تفنى مع غيرها من الزراف القصار الأعناق . .

الا أن الأكثرين من النشوئيين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يجعلونه سببا كافيا لبطلان القول بالانتخاب الطبيعى . . فلو أن دارون نظر الى مزية القوائم الطوال ، ولم ينظر الى مزية العنق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتاز بالقسرة على الجرى بفعل الانتخاب .

الطبيعى والانتخاب الجنىسى فى وقت واحد ، لأنه يعلى من متارديه ويسبق سائر الزراف الى أماكن المرعى كلما اضطرتة ندرة المرعى الى الانتقال من مكان الى مكان . وقد صح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض

\* \* \*

وبعد المنازلة بين الرأيين - رأى لامارك ورأى دارون ووالاس - يتضح انهما ينتهيان الى نتيجة متشابهة ، وهى ضرورة القول فى النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فان لم تنتقل بعد اكتسابها فى حياة فرد واحد فهى منتقلة بعد التجمع والتجمع من فرد الى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطيء ، ولم يكن فى ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشويين من قبله فى تعليله لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك ان دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الإيجابية كلما أمكن تعليل الظواهر المجهولة بالعلل السلبية ، فهو يقول ان الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن ابادتها ، بدلا من القول بمؤثرات معينة تخلق الصفات وتؤدى الى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه فى تنازع البقاء وفى الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنىسى ، أن تنتهى الى نتيجة واحدة ، وهى أن الاحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وأن أسباب الفناء عجزت عن ابادتها كما ابادت غيرها . وهذه العادة الذهنية هى فى وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف فى تفكير دارون وفى هذا الضرب من التفكير على عمومته . . فانها دليل على الأمانة الفكرية التى تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهى كذلك موضع النقص الظاهر لأن العوامل السلبية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء ، وان قامت عليها أحيانا دلائل الزوال الذى يفيد زوال فريق وسلامة فريق . .

وقد كان خطأ النشويين فى تقرير مسألة الوراثة نقصا لازما لمباحث العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، أيا كان رأى العالم الذى يقرر هذه المسألة ، لأن أسرار الوراثة لم تعرف قبل تقدم علم الناسلات ( أو الجينات )

Genetics ظهور فعل الناسلة Gene والصبغية Chromosome في نفل الحصاص والفوارق الفردية من الآباء والأمهات الى الأبناء . فكل صفة لا تكمن في الناسلة ولا تحتويها صبغية من صبغياتها فهي صفة عارضة لا تنتقل الى الذرية بالوراثة ، ويقول الأستاذ نيفيل جورج - أحد ثقات هذا العلم - ان الانتخاب الطبيعي - لأجل هذا - لا يصلح لتعليل مذهب النشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعلل زوال غير الصالح ولا يعلل نشأة المزايا التي تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام في ميدان تنافس البقاء ، تم تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعي في المستقبل عند التفاوت في تلك المزايا الموروثة بين الأفراد . وانما تنشأ هذه المزايا بعمل من أعمال الطفرة Mutation يكفي لاحداث التغيير المطلوب في الناسلة وفي صبغياتها التي تنقل تلك المزايا بالوراثة ، وقد أمكن العلم بالخواص التي تنقلها كل صبغية من الصبغيات في بعض أنواع النبات والحيوان ، وأمكن التأثير في الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال ان الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل اذا نفذت الى بذور النبات والحيوان ، وبها يعللون التحول المفاجيء كما يعللون الاختلاف الطارئ على النبات في الألوان والأحجام والأشكال . .

وتجرى تجارب الأشعة الآن لاحداث التحول الموروث في أنواع من الذباب والفراش ، وقد تؤدي التجربة فعلا الى ظهور خاصية في الحشرة تغير ذريتها فتخالقها بعض المخالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على سنن الوراثة المعروفة بالمندلية ، نسبة الى « مندل » صاحب التجارب المشهورة في وراثة الحبوب . ومن هذه التجارب تجربة تأثير الأشعة السينية على ذباب الفاكهة المعروف باسم « الدرسفيلة » Drosophila . فان تعريض الذبابة منه للأشعة يغير ذريتها ، فتأتي مخالفة لها في لون العين أو في طول الجناح . ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك في أجيالها المتعاقبة على السنة المندلية المقررة لتنظيم خطة الوراثة على نسق معروف من الأعقاب الى الأعقاب . .

، ويتجدد الآن سؤال قديم ملازم لفكرة النشوء منذ انتشار مذهب قبل  
تقديم علم النسلات : فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟  
هل هناك حد فاصل بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن غذا تحسين أنواع  
الحيوان بمعالجة النسلات ، فهل يمكن استخدام هذه الوسائل فى تحسين  
صفات الانسان الفكرية والروحية ؟ ..

ان النشويين قد تساءلوا عن هذا الفاصل ، منذ قرروا آراءهم عن  
التطور على قواعد العلوم التجريبية ، وأجابوا عنه اجاباتهم على حسب  
عقائدهم مرة وعلى حسب أمزجتهم مرة أخرى

فالعالم الفرنسى بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من  
جانبه الحيوانى ، ولا يعرض لجوانبه المميزة له فى عقائد المؤمنين ، ودارون  
يقول انه يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الانسان ولا شأن له بما  
عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين . وهذه الأجوبة من  
النشويين ليست بالأجوبة الحديثة فى بابها على ذلك السؤال القديم . فان  
ابن سينا - مثلا - كان يقرر مذهب الطب فى الأمراض التى تنسب الى  
فعل الجان والأرواح الخبيثة أو الطيبة ، فيقول انه لا ينبغى هذا الفعل  
ولكنه ينظر الى آثاره الجسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التى يعالجها  
بعلاجها الطبى الموصوف لها عند الأطباء

وليس النشويون جميعا على منهج بوفون ودارون أو منهج ابن سينا  
وأصحابه من علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء النشوء المحدثين -  
وعلى رأسهم ارنست هكل - ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته الى  
أنواع الحيوان ، ويجعلون لهذه النسبة شجرة تجمع بينه وبين القردة  
العليا وتنزل فى جذورها الى القردة المذنبة التى تعيش فى أمريكا الوسطى  
وأمريكا الجنوبية Marmosets وقلما تحتل الجو فى الأقاليم الشمالية ، ومن  
دونها الليمور Lemur قرد مدغشقر ، وهو موضوع فى شجرة النسب دون  
قردة « المرموز » الأمريكية

ويرتب النشويون القردة العليا - صعدا - من الجيبون الى الأورانج ،

الى الشمبانزى ، الى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها فى درجات الرقى بحسب .  
اعتمادها على تسلق الأشجار أو المشى على أديم الأرض والقدرة على الوقوف  
واعتدال القامة عند السير على قدمين . فإدناها ما كان اعتمادها كله  
على التسلق ومعيشته كلها فوق الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق  
الأشجار واحتاج الى استخدام يديه وهو ماش على قدميه ، فان نمو  
الدماغ مرتبط بدرجة اعتدال العمود الفقرى وعظام العنق ودرجة التصرف  
باليدين عن قصد وإرادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويزعم هؤلاء  
النشويون ان « التطور » الانسانى له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة  
الرموز المذنبة ، وتترج - صعودا - الى الانسان حيث يزول الذنب وينمو  
الدماغ وتتحول اليد الى أداة صالحة للتناول غير مقصورة على المشى أو التعلق  
بفروع الأشجار . ومجمل تلك العلامات أنها بوادر الجلوس والوقوف  
واختفاء الذنب ومخالب القدمين واليدين

ويذهب أحد النشويين المحدثين الى القول بأن نوع الانسان سابق  
لأنواع القرده بمئات الألوف من السنين ، وأن القرده العليا أناسى ممسوخة  
فقدت أوائل الصفات البشرية ، وانحدرت فى الصفات العقلية والجسدية  
الى مادون تلك المرتبة بكثير أو قليل .

وصاحب هذا رأى هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch الذى كان  
يدرس علم الانسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن  
انسان جاوه الذى وجدت بقاياها المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم  
Pithecanthrolus هو المرتبة الوسطى التى صعد منها خلفاؤها الى ما فوقها  
وهبط منها الخلفاء الآخرون الى مادونها ، ويزعم « كلاتش » أن الانسان  
ينتمى الى أصول متعددة ، ولا ينجم كله من أصل واحد . فالمغوليون  
وقرد الأورانج من أصل واحد ، ووزنوج افريقية والشمبانزى والغوريلا  
من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء فى الخصائص  
التشريحية .

\* \* \*

ومن المفارقات ان هؤلاء النشويين النسابين لم يبلغوا بالفرد ذلك

الشبه الذى تصورته طائفة من الأقدمين قبل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس .. فان تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القرود أناسى ممسوخون عقلت ألسنتهم وبقيت لهم أفهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فارق غير الفارق الذى يباعد بين الكائنات المشوهة والكائنات السوية من أصل واحد ، ولكن شجرة النسب تحتاج الى علم التشريح لالتقاط المشابهة التى ترجح القول بوحدة الأصول الجسدية بين الانسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ..

يقول آرثر كيث - من أكبر النشويين المتأخرين - فى كتابه شجرة نسب الانسان : « ان الأستاذ وود جونس لفت النظر الى بقاء علامات كثيرة فى تركيب الانسان قد اختفت من تراكيب القرود العليا وعامة القرود ، وان هذه القرود العليا وسائر القرود قد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ، ولست أرى أن هذه الشذوذات تستدعى تعديل شجرة النسب التى رسمتها هنا ، ولكنى أرى أن تفسيرها ينبغى أن يلتمس فى زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة ، فان الكائنات الحية أشبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفى غيرها .. فالغوريلا تولد فى أكبادها الفصيصات التى تتولد فى أكباد القرود ، بينما تقترب كبد الأورانج أشد الاقتراب فى تركيبها المتناسك من كبد الانسان ، ولكننا ينبغى أن نفترض أن هذين الحيوانين تحدرتا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبده تركيب كبد الجيبون »

ثم يستطرد الى بيان الشبه بين الانسان والقرود الافريقية فيقول : « ان الانسان له على جانبى تجويفه الأنفى سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التى تجاورها .. ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة فى نوعين من الحيوان ، ويوجد هذا النمط الانسانى فى كل من الشمبانزى والغوريلا ، وان كانت الجيوب فى الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمطا آخر ، ومن الجائز أن نمطا آخر كان موجودا فى أنف سلف الأورانج ويصعب التحقق منه بعد اتنكاس تركيب الأنف كله فى هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا .. وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزى أقرب استجابة الى الانفعال بدم الانسان من جميع الفقاريات .. وتبلغ



العلامات المشتركة بين الانسان وكل من الشمبانزى والغوريلا نسبة الى سائر العلامات التى أحصيتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار فى المائة ، ولهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات تنكشف يوما فى افريقية نعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزى والانسان »

هذه هى العلامات التشريحية التى أنتهى اليها أصحاب سُجرة النسب من النشويين المتأخرين ، وما عداها من العلامات ووجوه الشبه لا يعدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العامة التى يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة الى تشريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شابمان بنشر » Pincher فى كتابه عن تعليل التطور ، ثم عقب عليها قائلا : « انه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيًا أن يتطور منه تركيب الانسان ، اذ كان الانسان قد نما له خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقصوم ويد - فوق هذا وذاك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال »

وهذا الفاصل الحاسم هو قصارى مدى الاقتراب بين النوع البشرى وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعلم الوراثة ، يعبر عنه النشوي فيقول انه سبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفارق الروحي فى تعبير الدين

## التطور قبل مذهب التطور

ان اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أزمئة مجهولة ، وندرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتوافر فيها الأخبار والاساطير عن التناسل بين أنواع الحيوان أو بين الانسان والحيوان ، أو بين الانس والجن ، أو بين الانس وأرباب الأساطير المشبهين بالانسان . ومرد هذه الأخبار والأساطير - على الأكثر - الى جهل الأوائل بوظائف الأعضاء ، وجهلهم بالشروط الحيوية التي تلزم للحمل والولادة وامكان التناسل بين الأزواج المستعدة للتناسل في النوع الانساني فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يلد من نوعه صالح عندهم للتوليد من أنواع الأحياء

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها . ولكن لعل غير تلك العلة ، مردها - على الأرجح - الى المفاضلة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء . ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله في التفرقة بين المواد الكيميائية المعدنية والنباتية والحيوانية ، واشترك الأحياء وغير الأحياء في مباحث الكيمياء ، ثم جاءت في مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية

ومما يشبه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابي في شرحه لأقوال المعلم الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » ان « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن تقدم أولا أحسها ، ثم الأفضل فالأفضل ، الى أن تنتهي الى أفضلها الذي لا أفضل منه ، فأحسنها المادة الأولى المشتركة والأفضل منها الاسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »

ويذهب الفارابي على هذا الترتيب في التفرقة بين الانسان والانسان ،

بمقدار حظه من القوة الناطقة ، فيجيز أن يكون بعض أشباه الآدميين بالصورة الجسدية غير محاسبين أو غير أهل للحياة الأخرى

ويقول الكتبي (١) وهو يتكلم عن طبائع القرد : « ان هذا الحيوان عند المتكلمين فى الطبائع مركب من انسان وبهيمة ، وهو من تدرج الطبيعة من البهيمة الى الانسان »

ويقول القزوينى صاحب « عجائب المخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام الى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها الى العضوى وغير العضوى ، ان « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فان المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات . والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالانسان ، والنفوس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية . . »

وهذا الانتقال من المشابهة بالجسد الى المشابهة بالنفس شبيهة باحتراس النشويين المحدثين عند التفرقة بين الانسان من جانبه الحيوانى والانسان من جانبه الروحى أو جانب القوى الأدبية الوجدانية . .

ويقول اخوان الصفاء فى رسالتهم العاشرة : « اعلم يا أخى ان أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلي التراب هى خضراء الدمن ، وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النخل ، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشيء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش ، فاذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكماة ولا خضراء الدمن الا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب ما بينها . . وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلي الحيوانية ، وذلك

(١) محمد بن شاكر بن عبد الرحمن الكتبي الداراني . ولد فى دارية من قرى دمشق وتوفى سنة ٧٦٤ وأشهر كتبه المطبوعة « فوات الوفيات »

أن النخل نبات حيواني لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النباتات وان كان جسما نباتيا ٠٠ وفي النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النفس الحيوانية ، وان كان جسمه جسما نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك ان هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات . ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف الى الأشجار والزرور والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود الذى يدب على ورق الأنشجار وقضبان النبات ٠٠ وان أدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له الا حاسة واحدة وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت فى تلك الصخور التى تكون فى بعض سواحل البحار وشمطوط الانهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنسبط يمنة ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فاذا أحست رطوبة ولينا انبسطت اليه وان أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الانبوبة حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، الا ذوق اللمس حسب . وهكذا أكثر الديدان التى تكون فى الطين فى قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج اليه فى وقت جر المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج اليه لكان وبالا عليها فى حفظها وبقائها . فهذا النوع حيوانى نباتى لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له الا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هى التى يشاركها النبات فيها وذلك أن النبات له حس اللمس حسب »

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة فى كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « ان الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريعة والصور التى تحدث فيها ، فان الجماد منها اذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الاولى التى لا تقبل تلك الصورة . فاذا بلغ الى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك

الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد في الاقطار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء وترك ما لا يوافقه ونفض الفضلات التي تتولد فيه من جسمه بالصموغ ، وهذه هي الأشياء التي ينفصل بها النبات من الجماد ، وهي حال زائدة على الجسمية التي حددناها وكانت حاصلة في الجماد ، وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجماد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء . فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فلذلك هو في أفق الجمادات وقريب الحال منها . ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات ، فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبذر الذي يخلف به مثله ، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله . ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول ، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ الى أفقه ويصير في أفق الحيوان ، وهي كرام الشجر كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه . الا أنها - بعد - مختلطة القوى ، أعنى أن قوى ذكورها وأنثاها غير متميزة ، فهي تحمل وتلد المثل ولم تبلغ شاية أفقها الذي يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن في هذا الأفق الى أن تصير في أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة . وذلك انها ان قبلت زيادة يسيرة ، صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات . فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر ، كالنخل الذي طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ، ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة وهي الاطلاع من الأرض والسعى الى الغذاء . وقد روى في الخبر ما هو كالاشارة أو كالزم الى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم :

« أكرموا عما تكمل النخل ، فانها خلقت من بقية طينة آدم »

ويستطرد ابن مسكويه الى ذكر الحيوان بما يشبه قول المحدثين عن أسلحة الحيوان في تنازع البقاء ، فيقول ان الحيوان : « ان كان ضعيفا لم

يعط سلاحا البتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التى تنجيه من مخاوفه . وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذى أعطى القرون التى تجرى له مجرى الرماح ، والذى أعطى الأنياب والمخالب التى تجرى له مجرى السكاكين والخناجر ، والذى أعطى آلة الرمى التى تجرى له مجرى النبيل والنشاب ، والذى أعطى الحوافر التى تجرى له مجرى الدبوس والطبرزين . فأما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلته شجاعته ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه ، فقد أعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهاها . . . فأما الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى الى استعمالها كلها . . . »

تم يتدرج الى أقرب الحيوان الى الانسان ، وهو « الذى يحاكي الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التى ان تجاوزها ولو زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها . . .

« ولا يقف التدرج عند أفق الانسان ، بل يتفاضل الناس بين أهم لا تتميز عن القروء الا بمرتبة يسيرة ، وأهم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم الى أن يصيروا الى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، وإلى هذا الموضوع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل الى آخر أفقه . . . فإذا صار الى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الانسان . . . وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذى يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هى التى قيل فى حدها أنها خط واحد يبتدىء بالحركة من نقطة وينتهى اليها بعينها . ودائرة الوجود هى المتأحدة التى جعلت الكثرة وحدة ، وهى التى تدل دلالة صادقة برهانية على موجدتها وحكمته وقدرته ووجوده ، تبارك اسمه وتعالى جده وتقديسه ذكره »

الى أن يقول مخاطباً طالب المعرفة : « وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج الى العلوم الشريفة المكونة التي مبدؤها تعلم المنطق ، فانه الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي ثم الوصول به الى معرفة الخلائق وطباعها ثم التعنق بها والتوسع فيها والتوصل منها الى العلوم الالهية ، حينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيك الفيض الالهي ، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها لحوار الشهوات الحيوانية وتلاحظ المرتبة التي ترقيت منها أولاً فأولاً من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة الى ما قبلها في وجودها ، تعلمت أن الانسان لا يتم له كماله الا بعد أن يصل الى ما قبله ، واذا صار انساناً كاملاً وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار أما حكيماً ناعماً تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة والتأييدات الطيبة في التصويرات العقلية ، وأما نبياً مؤيداً يأتيه الوحي على ضرب من الأزل التي تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملائكة والملا الأسفل . . . ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين . . . »

وفسوف كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعي ينتهي الى غاية وسع الطبيعية من ترقية الجسد واتمام حسه وأعضائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أن الحيوان الى ما هو أعلى وأرفع وأقرب الى الملائكة الأعلى . . .

ولابن مسكويه بحث كهذا في كتابه « الفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداية ، وهي ما سماه بالمركز فيقول : « ان أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المراكز بعد امتزاج العناصر الأولى - أثر حركة النفس في النبات ، وذلك أنه تبرز عن الجماد بالحركة والاعتناء ، وللنبات في قبول الأثر مراتب مبدئية لا تحصى ، الا أنها مقسمة الى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، لكن الكلام عليه أظهر » . . . ثم ينتهي كما انتهى بكلامه في تهذيب الانحلال الى آخر مرتبة الحيوان وهي « مراتب القروود وأشباهاها من الحيوان التي قارب الانسان في خلقته الانسانية ، وليس بينها الا اليسير الذي اذا تميز به صار انساناً »

\* \* \*

وأشار ابن خلدون الى هذا التدرج - أو التطور - فترقى به من المعدن الى القرد الى الانسان ، وعلل اختلاف الناس بتأثير الاقليم وأحوال المعيشة على الابدان والأخلاق ..

قال : « ان عالم التكوين ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذور له ، وآخر أفق النبات مثل النخل ، والكرم ، متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها الا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدرجه التكويني الى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع اليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس والادراك ، ولم ينته اليه الفكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده ، وذلك غاية شهودنا .. »

وينفى ابن خلدون أوهام القائلين بنسبة الألوان والطبائع الى الدعوات أو اللعنات ، فيقول ان « بعض النسابين ممن لا علم لهم بطبائع الكائنات » توهم أن السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه .. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد .. وانما دعا عليه أن يكون ولده عبيدا لولد اخوته لا غير . وفى القول بنسبة السواد الى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات »

ويقول فى موضع آخر : « استولى الحر على أبدانهم وفى أصل تكوينهم ، فكان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم .. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته »

ويصحح بعض المتقدمين ما لعله يسبق الى الوهم من القول بتدرج



«الكائنات ، إذ يخيّل الى الجاهلين بمعناه أنه يعنى تنقل الكائنات فى درجة درجة من مراتبه المترقية ، وانما حقيقته كما قال الخازنى : « اننا اذا قلنا ان الانسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا ، فليس معنى ذلك انه كان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا حتى صار فى النهاية انسانا »

فليس عندهم من الضرورى أن يكون كل كائن رفيع قد تنقل قبل ذلك بين أطوار الكائنات التى هى دونه ، وان كان جميع المتكلمين فى أطوار الكائنات الحية لا يمنعون امكان التسافد بين بعض الحشرات والحيوانات المختلفة ، كما جاء فى كتب الحيوان جميعا ، وأسهب فيه الجاحظ على الخصوص اسبابا سلم فيه من كثير من خرافات المتقدمين عليه واللاحقين به فى هذا الباب ، وأكثرهم ترديدا لهذه الخرافات القزوينى صاحب عجائب المخلوقات ، فهو حافل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحياء ، وعن الخلائق الأسطورية التى أنقرضت ولم يبق منها غير آثارها وأخبارها ، وعجائب المخلوقات التى تتواتر الأحاديث عن وجودها فى الأطراف النائية التى لم يصل اليها أحد غير من ضل طريقه أو جنحت به السفن من الملاحين والمفررين وهذه الأساطير - كما قلنا فى غير هذا الكتاب (١) - تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقائق تلك الكتب « لأنها هى البقية الباقية لنا من تلك الأوهام التى تسلطت على العقل البشرى فى أزمانه الحالية ، وهى المفتاح الذى ليس لدينا مفتاح سواء لحزانة المخيلة ، وما أكنته من تصورات الانسان ووجدانه وما انطبع فيها من البدائى العميقة المتغلغلة التى عودتنا أن تنطق بالأحاجى والألغاز تبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها .. وهذا الكتاب الذى نحن بصده مكتظ بتفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يتشاكل منها فى البر والبحر .. فمنها كلب الماء وقنفذ الماء وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا انها تلد من خيل الأرض ، ومنها انسان الماء ويشبه الانسان الا أن له ذنبا . وقد جاء شخص بواحد منه - على قول القزوينى - الى بغداد فعرضه على الناس ، وذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء الى

(١) كتاب الفصائل .

الحاضرة انسان ، وله حية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزك .  
 فإذا رآه الناس يستبشرون بالخصب ، وحكى أن بعض الملوك حمل اليه  
 انسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة نجاء منها ولد يفهم  
 كلام الأيوين ، فقبل للولد : ماذا يقول أبوك . قال أذئاب الحيوان كلها على  
 أسافلها ما بال هؤلاء أذئابهم على وجوههم . ونقل عن يعقوب بن اسحاق  
 السراج أن رجلا ركب البحر فألقته الريح الى جزيرة . . « فأتى قوم وجوههم  
 كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كأبدان الناس »

وهذه الاساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل المخيلة  
 فى فهم الصور البعيدة بزمانها أو مكانها ، وقد تدرس على أنها ترجمان  
 للوعى الباطن الذى استقر فى أعماق بديهة الانسان وغرائزه الوراثة ،  
 ولا بد أن تدرس فى جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعنبر « مسودات »  
 للإدراك الانسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك  
 واليقين وبين الوهم والصدق فى انتظار التصحيح والتنقيح

## أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل اعلان مذهب النشوء في الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير في البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على اعلان هذا المذهب أن حملات الدينين عليه في البلاد الغربية لم تكن أحذق ولا أليق بالبحث الديني أو العلمي من أشباه هذه الحملات التي قوبل بها بلادنا الشرقية يوم انتقل اليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلي :

لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقي الأثر الى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب في دايتون ( شهر يولية سنة ١٩٢٥ ) لأنه خالف القانون الذي حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التي سجلت أثناء المحاكمة بين محامي الدفاع وخبير الاتهام :

— هل تقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل بتفسيره الحرفي .  
— أنا أقرر أن كل ما ورد في التوراة ينبغي أن يقبل كما ورد فيه .  
وبعض ما جاء في التوراة قد ورد في سياق التشبيه ، كقوله : « انكم ملح الأرض » . فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحاً أو انه كان له دم من الملح ، ولكنني أفهمه كما أفهم معنى شعب الله المختار .

— هل لك أن تخبرني يامستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟

— كلا ياسيدي . . . لست أدري

— ولا على وجه التقريب ؟ . . .

— لست أحاول . . . ولعلّي أقرب من تقدير العلماء ، ولكنني أحب أن

أدقق كثيراً قبل الجواب

- انك لا تعبأ كثيرا بالعلماء ٠٠ أتعبأ بهم حقاً ؟
- نعم ياسيدي ٠٠
- أعتقد ان الكرة الأرضية صنعت في ستة أيام ؟
- ستة أيام نعم ٠٠ ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة

\* \* \*

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان الى التشهير بالعقائد الشائعة وبالمذاهب العلمية التي كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الضجة التي رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء

الا أن الباحثين الدينين عدلوا أخيراً عن التحريم بقوة القانون الى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ منهم فريق في تفسير المذهب بالمعنى الذى يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر فى إنكاره بالأدلة العلمية التى استند اليها العلماء ولا يزالون يستندون اليها الى هذه الأيام ٠٠

فصدر عند الاحتفال بانقضاء ستين سنة على اعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمى على الطريقة الدينية ألفه الأستاذ ث. ب . بيشوب وسماه « النشوء منتقدا » (١) ولم يتزحزح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التى تضطرب فيها روايات التاريخ كالفترة بين الفيضان ووفود الخليل ابراهيم الى كنعان ، وأخرج منها الفترات التى لا تتعارض فيها النصوص والشواهد الجيولوجية ، ثم بنى انتقاده للمذهب على مطالبة النشويين بالدليل ٠٠ لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن انسان يخالف فى تكوينه الثابت تكوين النوع الانسانى فى صورته الحاضرة ، ولم تبق من آثار الطوارىء الجيولوجية-

بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا الى مسافة أبعد من منتصف الطريق ، كما رأى والاس شريك دارون ٠٠ حيث يقول فى كتابه عن عالم الحياة « انه لمن المحتمل جدا أن السجلات الجيولوجية الباقية لا تحملنا الى أبعد من منتصف العمر الذى عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات ، وان تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشويين دليلا على التشابه القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الاجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه ، وما عدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألمانى أرنست هكل ، فانه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر الى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول

ولم يدع بيشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند الى أقوال العلماء المختصين ٠٠ فقال ان حصان الحفريات على أقدم صورهم لم يثبت من نسبته الى نوع الخيل غير الأسنان ، وان الطائر الذى قيل انه الحلقة المفقودة بين الزواحف والطيور لم يتبعه قط فى تسلسل الحفريات طائر ذو أسنان ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة الى الخالق فالعالم النشوي الأمين على علمه لا يتخذه سببا من أسباب الحاد ، وكذلك كان والاس مؤمنا بالعقل المدبر كما قال فى كتابه عن عالم الحياة ، اذ يقرر جازما باعتقاده « ان ما نطلبه — اطلاقا — ولا مناص من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل الذى هو اسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتفرقة التى نراها حولنا ، وانه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة فى الأنواع الحية وعلى ارشادها وتديرها وحسب ، بل انه لهو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل ، وينبوع لما هو الأساس الأول لكل ما فى هذه العوالم المادية ٠٠ »

\* \* \*

ويؤخذ من متابعة الفترات التى يستعاد فيها النقاش حول أصل الانسان

أنها ترتبط بالمحن « الروحية » التي تثيرها مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها في القرن العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، وقد تكون المناسبة لاستعادة النقاش تاريخية من قبيل الذكريات الموقوتة بالعشرات أو بالمئات من السنين ، ولكنها إنما تستعاد في هذه المناسبات ببواعث الشكوك والمنازعات التي تصاحب الحروب العالمية والفتن الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار البحث في مذهب النشوء بما دعت إليه من بحوث متشعبة في تنازع البقاء وإرادة القوة ، وفي تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو العوامل الفكرية والروحية ، وفي هذه السنة - سنة ١٩٤٥ - تدفقت الكتب التي تعرض لهذه المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين في هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين في حجج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر في أقوال الأنصار والخصوم . ولعل أجمعها فيما أطلعنا عليه كتاب « الله والانسان في الكون » (١) الذي توفر على تأليفه نخبة من الباحثين الدينيين يعرفون وجهات النظر « الكاثوليكية » في تحقيق كل فلسفة تبحث في الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظام الاجتماعي وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث في مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من مشكلات الانسان التي تتوالى في كل زمان بأسلوب وعنوان

\* \* \*

وقد استفاد مؤلفو هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التي انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين في الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعنوا في التفصيلات التشريحية التي كانت مجتمعة في الفوارق الواسعة بين تركيب القرد وتركيب الانسان ، ولا سيما الفارق المميز للانسان الناطق . وهو قوام الفصل بين النوعي الإدمي وعامة الأنواع العليا . فهذا الفارق الواسع في الملكات العقلية يقابله فارق دقيق في تكوين الدماغ ، يبين استحالة النطق بغير

هذا التركيب الانساني الخاص بدماع الانسان دون سواه : فالرأس الانساني يحتوى جميع المناطق التى وصفناها فى رؤوس القرود ، ولكنها تتخصص بمناطق أخرى تسمى بالمناطق النانوية ٠٠ أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية ، وهى مستحيلة بغير الاتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل البصر كذلك ٠٠ فهناك مركز للمنطق فى مقدمة مراكز الحركة فى الوجه ، ومراكز بصرية للكلام فى المنطقة الجدارية ، ومراكز سمعية فى الفص الصدغى ، وفقدان مراكز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المتقابلة الضرورية للمنطق بغير تعطيل عمل اللسان والشفنتين ٠٠ كذلك تستتبع آفات البصر عجزاً عن قراءة الكلمة المكتوبة ، كما تستتبع آفات السمع عجزاً عن فهم الكلمة الملفوظة وان تيسر سماعها ٠ ويضاف الى هذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف السيكلولوجية ٠٠ ولا يوجد غير الشمبانزى بين القرود المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات امتداد جد ضعيف »

\* \* \*

وعلى هذه الوتيرة المطردة يؤدى هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمانة « العلم الطبيعى » لابرار مواضع الشبهة فى أدلة مذهب النشوء وقرائنه التى لم ترتفع الى قوة الدليل ، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل فى حدود المقررات العلمية ، ولا يدعون فارقاً خفياً منها الا وضحوه وكبروه وبلغوا به غاية الشك ، وباعدوا غاية البعد بينه وبين مرجحات اليقين ، ولم يقصروا ذلك على الأدلة أو القرائن التى يستند اليها النشويون للقول بتحول النوع الانسانى من الأنواع الدنيا ٠٠ بل شملوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والزواحف والطيور والفقاريات ، ومنها المتسلقات وغير المتسلقات ٠

\* \* \*

وقوبل مذهب النشوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية ، وطلبوا من دعاة دليلا محسوسا على فعل الانتخاب الطبيعى

فى تحول الأنواع ، ولا سيما نوع الانسان . . فالمعترضون عليه - طلبا  
للأدلة الطبيعية ، لا يقلون عددا ولا اعتراضا عن المعترضين اللاهوتيين .  
وقد أيدته أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحمسهم  
له باسم حرية الرأى أشد من تحمسهم له إيمانا بحقيقته واعترافا بكفاية  
براهينه . فمن هؤلاء العلماء - بل من أشدهم حماسة له - توماس هكسلى  
صديق دارون وصهره ومدره المذهب كله فى حياته ، فانه لم يزعم قط  
ان أدلة الانتخاب الطبيعى المؤيدة لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه  
النتيجة ، وانما كان يقول ان الانتخاب الطبيعى يفسر لنا جملة من الظواهر  
والمشاهدات تبقى بغير تفسير لو لم نتقبل مبادئ الانتخاب الطبيعى ،  
كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء لامارك . ويرى العالم البيولوجى  
الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب الطبيعى ، انما هى نظرية  
منطقية وليست بالنظرية التى تعتمد على شواهد التجربة والأدلة الحسية .  
قال فى رده على هربرت سبنسر : « اننا لن نستطيع أن نثبت بالمشاهدة  
عملية الانتخاب الطبيعى » وأن قول هربرت سبنسر « انه أما أن تحدث  
وراثة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الاطلاق » انما هو دليل  
منطقى وليس بالدليل التجريبي ، وهو مع ذلك ليس بالدليل الملزم فى  
قضايا المنطق ، لأن تعليل التطور بغير وراثة الصفات المكتسبة ليس بالغرض  
المستحيل

\* \* \*

وبقيت هذه العقدة عصية الحل على القائلين بالتحول النوعى الى  
اليوم ، فلم يتقدم أحد من النشويين عند الاحتفال بذكرى كتاب أصل  
الأنواع ( ١٩٥٨ ) بدفع حاسم لشكوك المترددين فى قبول تحول الأنواع .  
وقد كتب دوبرانسكى Dobzansky أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية  
فصلا عن الأنواع بعد دارون فى مجموعة : « قرن من دارون » (١) فلم  
يحاول تهوين القضية ، ولكنه زاد أسبابا جديدة لبيان الصعوبات التى  
تحول دون تلاقى الناسلات والصبغيات فى أرحام أفراد الحيوان المتميزة ،



وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقي الفردين من نوع واحد أخذ في التباعد والاختلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور والاناث كلما ابتعدت أشكالها ولو بقيت ناسلاتها وصبغياتها قابلة للتزاوج والانقسام الى تمام تكوين الجنين

\* \* \*

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقل الآن من سلسلة الأنواع الى سلسلة الناسلات Genes والصبغيات . . . وان الأمل في الوصول الى هذه الحلقة من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألق الأستاذ برنارد رينش أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن « التطور فوق مستوى الأنواع » (١) لشرح هذه الفكرة ويبين ان عزل النوع : انما يتم بانعزال ناسلاته وان البحث في تاريخ تغير الناسلات هو مرجع البحث الأصيل للوصول الى الحلقة التي تفصل بين ما تقدمها وما تلاها ، وتنشئ شروطا جديدة للنسل والوراثة فتعتبر بذلك حدا فاصلا بين نوعين . . . فليس من السهل أن ننتظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائلها الموهلة في القدم ، ولكننا اذا اكتشفنا سر تطور الناسلات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة - فهاهنا محل الحلقة المفقودة في سلسلة الأنواع

## مذهب التطور في الشرق العربي

من خصائص مذهب دارون - علي ما يظهر - أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير ضروبا متقاربة من الاعتراض في مواطن العقيدة والثقافة العُمة . . فانه لقي في الشرق العربي مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض في البلاد الأوروبية ، وتتابعت أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء العلم الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه ، وتكرر هذا كله في الشرق العربي كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقشع شبهاته عن حقائقه الا بعد الثورة المفاجئة التي يظهر - كما أسلفنا - أنها مقدمة لا بد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا محيص عنه

وقد تصدى للرد عليه في الشرق الاسلامى عامة ، والشرق العربى خاصة ، نخبة من المفكرين وقادة الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم انكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ، فكل انسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم

وقلما يتصور القارىء العصرى ان مذهبيا كمذهب التطور يشيع في الشرق العربى قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذى بقيت لنا بعض كتاباته وانطوى أكثرها في زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات الصحفية . . لأن القارىء العصرى يحسب أن مذهب التطور قد وصل الى الأمم الشرقية وهى فى « جاهلية » لا تبلغها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية ، ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن التاسع عشر لم تكن فى شرقنا العربى حجاجا دون المذاهب الفكرية التى يطلع عليها الأوربى المثقف فى حينها ، ولم يكن مذهب كمذهب التطور لينعزل فى حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يتحدث عن نسب

الانسان حيثما كان ، فى زمن لم يتحدث فيه الناس عن شىء كما تحدثوا  
عن مفاخر الأمم بالأصول الانسانية وبالأنسب التى يدعيها السادة لأنفسهم  
وينكرونها على الرعايا المستعبدين

\* \* \*

وسنختار فى هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه فى ذلك  
انعصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، ومنهم  
أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية فى بلاد العالم  
العربى ، وقد وصلت أصدااء الردود التى كتبها المشهورون من أولئك  
المفكرين الى أطراف البلاد الاسلامية فى الهند والصين

قال السيد جمال الدين الأفغانى من أئمة المصلحين من أهل السنة فى  
كتاب الرد على الدهريين :

« ٠٠ رأس القائلين بهذا القول داروين ، وقد ألف كتابا فى بيان ان  
الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدرج على  
تتالى القرون المتطاولة وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى  
برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من تلك الصورة الى أول مراتب الانسان  
فكان صنف النيمنم وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفرادهم الى أفق  
أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى

« وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون  
وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك ٠٠ فان سئل داروين عن  
الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدها  
التاريخ ، الاظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى  
هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها  
عن الآخر فى بنيتها أو أشكال أوراقه وطوله وقصره وضيخامته ورقته وزهره  
وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى قاعل خارجى أثر فيها حتى خالف  
بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ ٠٠ أظن لا سبيل الى الجواب سوى  
العجز عنه ٠٠

« وان قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين تشاركها في المأكول والمشرب وتسابقها في ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا في الألوان والأشكال والأعمال - فما السبب في هذا التباين والتفاوت فلا أراه ، يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر .. »

« وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص ، وهي تعيش في منطقة واحدة ولا تسلم حياتها في سائر المناطق من الحشرات المتباينة في الحلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة في بقعة واحدة ، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة .. فماذا تكون حجته في علة اختلافها .. بل اذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم في نقصها وخذاجها .. وأى مرشد أرشدها الى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وإبداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة في عضو أداء وظيفته وإيفاء عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول الى تحديد منافعها ، وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية .. لا ريب انه يقمع قبوع القنفذ وينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الآبدين .. »

« وكأني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية الهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية

« وانا نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك ان الخيل في سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة في البلاد العربية ، وانما علة ذلك الضرورة وعدمها . ونقول : ان السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته في بقعة واحدة لوقتتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود في سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن في أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل في الحرارة وقلته في البرودة .. »

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من ان جماعة كانوا يقطعون أذنان كلابهم ، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذنان . . . كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته ، وهل صمت اذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الحتان ألؤفا من السنين ، لا يولد مولود حتى يختن . . . والى الآن لم يولد واحد منهم مختونا الا لاجاز

» ولما ظهر لجماعة من متأخري الماديين فساد ماتمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة . . . فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والأشكال العجيبة والصور الأنيقة وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة فى نظام الكون علوية وسفلية . . . والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وإطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء : متيير ، وفورس ، وانتليجانس ، أى مادة وقوة وإدراك ، وظنوا أن المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتنجلى بهذه الأشكال والهيئات ، وعندما تظهر بصور الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلبسها من الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتنشئ لها من الأعضاء والآلات ما ينفي بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات الى الأزمنة والأمكنة والفصول السنوية . هذا أنفس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف جحر وخرجوا من ألف نفق ، وما هو أقرب الى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين ان الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيةية - نسبة الى ديمقريطس - ولا ينطبق رأيهم الجديد فى هذا النظام الكونى على رأيهم فى تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء ، اذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين ، فلا يقوم علم واحد بجزيئين ولا بأجزاء . . .

« وبعد ذلك فانى سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أفهم كل منها باقيها بما ينويه

من مطلبه ؟ ٠٠ وأى برلمان أو أى سنات - مجلس شيوخ - غفدت للتشاور  
فى ابداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف ؟ ٠٠ وانى لهذه  
الأجزاء أن تعلم وهى فى بيضة العصور ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل  
الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته  
اليهما ؟ ٠٠

\* \* \*

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد  
« فلسفة دارون » لمؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهاني »  
وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكر بلاء المعلى ، تحرى النظر فى مجموعة  
وافية من مراجع مذهب النشوء العربية والافرنجية التى وصلت الى الشرق  
الاسلامى بعد كتابة « الرد على الدهريين » ولم يقنع بما اطلع عليه من هذه  
المراجع ، بل أرسل فى طلب غيرها من المراجع المستحدثة ، ولكنه ألف كتابه  
ولم ينتظر وصولها اليه لولا « الباعث الدينى » كما جاء فى مقدمة الكتاب  
حيث يقول ان دارون وسائر رؤساء هذه الفلسفة الفوا كتبوا غير موجودة  
عندنا « وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب الى زمن وصولها لولا الباعث  
الدينى وطننا انه يوجب علينا المسارعة ، ولا يبعد أن يكون قد منعنا صغرى  
دليل قد فرغ هؤلاء من اثباته أو كبرى حجة مذكور فى كتبهم برهانها ،  
وأنا أقترح عليهم أن يخبرونا بما يجدون منه ومن أمثاله لننظر فيه ، ولهم  
علينا أن نستعمل الانصاف لا المكابرة »

ولم يقصد المؤلف بالباعث الدينى أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء  
التي تخالف الديانة الاسلامية دون سائر الديانات ، ولكنه أراد أن ينقض  
أدلة الاتحاد التى تعارض الايمان بالله وبالعقائد الإلهية على اجمالها ، وقال  
فى كلمته الخاصة بالمؤمنين : « ليعلم أن كتابى هذا موضع للدفاع عن الدين  
المطلق فى قبال اللادين المحض ، لا للانتصار لدين على دين ٠٠ ولهذا ترانى  
أدفع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء  
لا يثلب ديننا الا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يزرى على شريعة الا ليسرى  
أزراؤه الى الشرائع قاطبة ٠٠ »

وأنصف المؤلف مذهب النشوء ، فلم يحسبه من مذاهب الاتحاد والتعطيل لأن القول بالنشوء لا يقتضى انكار الخالق وانما يتسرب اليه الاتحاد من تفسيرات الماديين لمقدماته على الوجه الذى يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة النشوء والارتقاء انها « ليست مما ينافى الدين ، اذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها ، صنع اله واحد قادر حكيم قد وسع كل شئ علما وأتقنه صنعا .. خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وان هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وانها لم تتغير عما وجدت عليه فى أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جمالا أو كانت ضفادع تنق فى الماء ، والجد الأعلى للفيل فيلا أو « سنونوا » ينلر فى الهواء ، فان أدلة الصنع عليهما فى الحالين ظاهرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرحة الملاحدة بهذه الآراء وجعلها أساسا للاتحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف ان هذه الآراء « ليس فيها الا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء فى وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر ؟ .. وهم يرون الله تعالى بلطيف حكمته وبديع صنعته يخلق الثمر من الشجر ، والشجرة من النواة ، ولا يجعل العنب حلوا الا بعد ما يجعله حامضا ، ولا يجعله حامضا الا بعد ما يجعله مرا »

ويستطرد المؤلف الى تلخيص آراء النشويين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع الى أقوال الأقدمين من ألهمج الذين انتسبوا الى القرودة كما انتسبوا الى غيرها من الحيوان ، ويرجع بعد ذلك الى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا الشبه بين الانسان والقرود ، ولم يذهبوا مذهب دارون فى تعويله على وجوه الشبه واعراضه عن وجوه الخلاف فيقول : « ان أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب » ويستشهد بكتاب التوحيد الذى أملاه الامام

جعفر الصادق على المفصل بن عمر الجعفي ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان في كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمنكبين ، وكذلك أحشاؤه أيضا شبيهة بأحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم من سائسه ما يوصى اليه ، ويحكى كثيرا مما يرى الانسان يفعله ، حتى أنه ليقرب من خالق الانسان وتماثله . . أن يكون عبرة للانسان نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنحها ، اذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وانه لولا فضيلة فضل بها في الذهن والعقل والنطق كان ك بعض البهائم . . على أن في جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخام والذنب المسال والشعر المجعل للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالانسان لو أعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه »

ويستقل المؤلف الى كلام الدميري ، اذ يقول عن القرد انه « أشبه الانسان في غالب حالاته ، فانه يضطك ويضطرب ويغنى ويحكى ويتناول الشيء بيده وله أصابع مفصلة الى أنامل وأظافر ، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشي على رجليه حينما يسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أهداب ، وليس ذلك لشيء من الحيوان سواه فهو كالانسان ، يأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الاناث ، وحما خصلتان من متأخر الانسان ، فاذا زاد به الشبق استمنى بغيه ، وانجبل الانثى أولادها كما تحمل المرأة . . وفيه من قبول التأديب والتعليم مالا يخفى . . »

ويذكر المؤلف أن اخوان الصفا بلغوا برصف هذه المشابهة ما لم يبلغه دارون ، حيث قالوا ان القرد « لقرب شكل جسمه من جسد الانسان صارت نفسه تتأكي النفس الانسانية » ثم يتب على هذه التشبيهات جميعا ، فيقول ان الانسان - كما يشابه القرد في أشياء - يشابه غيره من الحيوان في غيرها « بل لعل في الحيوانات الدنيا من شبه الانسان أقساما لا توجد في العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد المشابهة . . وهذا الأستاذ الشهير « كوفييه » يقول ان ادراك القرد ليس أرقى من ادراك الكلب الا قليلا . . واذا سلمنا ان من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يتعين تحول الانسان عن



حيوان نشأ عنه القرد ؟ ٠٠؟ فلعل الانسان تحول قردا ٠٠ وهذا ما نص عليه  
الذكر الحكيم ،

وبعد مناقشة المؤلف قرينة الشبه الظاهر بين الانسان والقرد ، مضى  
يناقش القرائن الأخرى التي يستند اليها النشويون للقول بتحول الأنواع.  
وتحول النوع الانساني من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين الفقاريات  
العليا ، فنهج في مناقشته على هذا المنهج الذي يستمد الدليل من أصغر  
الجدل المنطقي تارة ومن تجارب الراقح تارة أخرى ، وأفادته مطالعته المتفرقة  
لمراجع المذهب ٠٠ فلم يخطئ مواضع الحجة الواقعية أحيانا ، مع اعتماده  
الغالب على منهج النقائص الجدلية ٠ ومن قبيل ذلك انه عمد الى دليل من  
أقوى أدلة النشويين وهو بقاء الأعضاء الأثرية - كالشندوة - في ذكور  
الانسان ، فتساءل : « لا أدري لماذا بقي أثر عار الخنوثة ظاهرا في الانسان ،  
ولم يبق فيما هو أدون منه في سلم الارتقاء كنوات الحافر » ولم ينس أن  
يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده الى ما قاله الشيخ الرئيس في الشفاء  
« ان الفيل الذكر له ثدي كما للانسان ، وذكر ذوات الحافر لا ثدي لها  
الا ما يشبه أمهاتها وينزع اليها كما يعرض مرارا في الخيل » ٠٠

وجملة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل في باب  
« الشندوات » التي تعرض لتكوين بعض الأحياء ، وهي أجنة في بطون  
أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ،  
أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه في  
غير موضعه ، ثم قال متسائلا : « فهل يمكن تسليط هذه الشواذ المشروعة  
بحيوانات كانت كذلك في العصور الجيولوجية فانتقلت الى هؤلاء التمساء  
بناموس « الأتافيسيم » ؟ ٠٠ فان لم يمكن ذلك فلتكن الشواذ التي فيها  
بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل »

ومنهج المؤلف في نقد الانتخاب الجنسي - وهو سبب هام من أسباب  
التطور - كمنهجه فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الجنسي في النباتات  
ويسأل : كيف يقع الانتخاب الجنسي بين النباتات التي لا يتوقف تلقيحها  
على الحشرات والطيور ؟ ٠٠ وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو

أجمل ؟ ٠٠ ثم يقول : « ان العجماوات قليلة الادراك لما فى المصنوعات الجميلة من الجمال حتى. أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الانسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب »

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات الملقحة عذرية الهوى والغرام ، وهائمة بالجمال كعروة بن خزام ٠٠ ولكنها لا تريد مغازلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها ، وعند أى نبات وجدته لفتحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدري بما يعلل هذا الحسن وانتظام فى الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوهما مما لا يوجد الا بعد التلقيح »

ثم أنحى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على افتراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قتلها ، وليس هذا الافتراض باللائم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف فى هذا الرأى أنه كما يمكن أن يعلل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قتلها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال ان أصول الأحياء كانت فى بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حى يخلف نسلا يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة لكن بما يقربه الى فرد آخر ، فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء يلاشى الضعيف ، والطبيقة تنتخب القوى حتى صارت التباينات التى قلنا انها مع غير المشابهات ثابتة ، فتألفت منه الأنواع الموجودة ٠٠ وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا تجتمع معها فى الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله فى الحيوانات المنحطة التى يذكرها بخنر وغيره ، فانها الآن تؤلف جنس المنحطات وهى بعيدة فى الأصل منها ٠٠ »

قال : « وهذا الاحتمال ٠٠ وان لم أجد أحدا قال به فى أصول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين فى أصل اللغات ٠٠ وعند العلماء مذهبان شهيران : الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهى كلها من أصل واحد ٠٠ وهذا الأصل قد تفرع وتنوع فتولدت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة

والنقصان والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعذر رد بعضها الى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها . والمذهب الثاني أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وأنه مع إزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ . . . وعند الكاتب أن المذهب الثاني أقرب الى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول . . . »

وتابع المؤلف بحثه فى النشوء ، فاستطرد منه الى البحث فى الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الانسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل فى حصول التغير ؟ » . . .

وانتهى المؤلف الى أن المذهب كله ناقص الاسناد ، لا توجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيح والتغليب ، ولا غنى له عن المزيد من البحث والتنقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا الى قول فيرسو العالم الألماني : « انه فى بعض طوائف الناس صفات يشاركونهم القرد فيها ، كما فى بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والقروء حتى يحتمل ارتقاؤها من القروء ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار اليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كافية لتمييز نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين المشهورين يرتاب فى ذلك ، والفرق بين الانسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على النوع المقطوعة منه . . . فالأدلة على النشوء الفعلية قاصرة جدا لا يبنى عليها حكم ، ولا بد من أن يزيدنا البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية : . . . »

\* \* \*

ويتبين من مراجعة « المكتبة النشوئية » فى الشرق العربى ان الاهتمام بالمذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هى الكنائس التى تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه فى موطن ظهوره ، وشاركهم فى ذلك علماء الطبيعة المسيحيون

ممن أنكروا المذهب واستندوا في إنكاره الى الأدلة العلمية ، وطالبوا النشويين بمزيد من الأدلة القاطعة لاثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكفي في مثل هذه الحالة أن تستند النظرية الى الترجيح والتغليب أو الى الطن والتقدير ، وقد يعزى الى هذا السبب كثرة الدراسات التي تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية، وبخاصة في البلاد التي كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ونحن نختار هنا من الدراسات النشوئية التي كتبت باللغة العربية ، ولا نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه . . ولم نجد بينها ما هو أول من دراسات الأساتذة ابراهيم الحوراني ، والأب جرجس فرج صغير الماروني ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور حليم عطية سوريال ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لمناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبلي شميل » في موضوعه ، وهي مؤيدة للنشويين المنكرين للأديان

فالأستاذ ابراهيم حوراني - وهو عالم لغوي مطلع على المباحث العلمية - ألف في الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء في نفي النشوء والارتقاء » ثم اتبعها برسالة « الحق اليقين في الرد على بطل داروين وطبعها ببيروت ( سنة ١٨٨٦ ) رداً على مناقشة الدكتور « شبلي شميل لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف في المذهب وهو افتقاره الى الدليل القاطع وتعويله على الشواهد التي توحى بالرأى ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال

\* \* \*

وقد آثر الأستاذ حوراني أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة المخالفين لدارون في القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال « ان العلماء لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا

فيه مع علمهم انه بحث فيه. عشرين سنة ، ومنهم العلامة ونشل مع انه من أشد الناس ميلا الى القول بالارتقاء. يفعل الله . . . ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الانسان ولا بد من القول بخلقه رأسا . . . ومنهم الأستاذ فرخو قال انه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرود فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان سلالة قرود أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك . . . ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر في حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييده وأنه رأى من آراء الصبيان . . . ومنهم العلامة فون بسكوف ، قال بعد أن درس هو وفرخو تشريح المقابلة بين الانسان والقرود أن الفروق بين البشر وأنقرود أصلي وبعيد جدا . . . ومنهم العلامة أغاسيز ، قال في رسالة في أصل الانسان تليت في ندوة العلم الفكتورية ما خلاصته ان مذهب داروين خطأ علمي باطل في الواقع ، وأسلوبه ليس من أساليب العلم بشيء ولا طائل نحتة . . . ومنهم العلامة هكسلي وهو من اللأدرية وصديق لداروين ، قال انه بموجب ما لنا من البيانات لم يتبرهن قط أن نوعا من النباتات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو الانتخاب الصناعي ، ومنهم العلامة تنول وهو كهكسلي قال انه لا ريب في أن انذين يعتقدون الارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها . . . ومن المحقق عندي أنه لا بد من تغيير مذهب داروين » . . .

ويقسم الأستاذ حوراني أنصار مذهب النشوء الى ثلاث أفرق : معطلة ولا أدرية والهيبة . . . « أما المعطلة فهي التي نفت الخالق سبحانه وقالت بقديم المادة . . . وأما اللأدرية فهي التي لم تتعرض لنفي الخالق ولا لاثباته ، وأما الالهية فهي التي اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة الى اثنتين ، ظنت احدهما الانسان ابن القرود أو صنوه ومنها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الانسان من البدء انسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة أصحاب النشوء الالهي الذي قالت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا . . . معقنا » .

ثم أورد الأستاذ حوراني احصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع

التي وجدت فى باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين فى المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التي نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شىء من بقايا الحفريات

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشويين بتشابه الأجنة بين الانسان وبعض الحيوان ، فيقول ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر » . بدليل أن التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز الا لوزة »

ويحيل النشويين الى بحث التيرانولوجيا - أى المشوهات - لتفسير الأعضاء الأثرية التي تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنث » أى من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجايا والأخلاق

وقال عن الانتخاب الطبيعي انه لا يمكن « أن يكون رأس الارتقاء الدارويني لأن الطبيعة انما تؤثر فى الموجود ، وليس لها أن توجد المعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيون .. ولكنها لا تستطيع أن توجد البصر » . ويقتضى مذهب داروين أن لا تجتمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى الثانية أبدا ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت فى المنقرضات والأحياء »

وأضعف ما فى ردود الأستاذ حوراني قوله عن قدم الانسان ، اذ يقتضى مذهب داروين أن يكون الانسان قديما جدا « ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشويين وغيرهم انه أحدث الأحياء وانه كان منذ بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان فى ثانى العصر الجليدى وهو المعروف بالأكثر أحدثية ، وفضل ذلك فى خطبة له فى الانسان قبل زمن التاريخ .. وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين

تفى زمن نشوء الانسان فاتفقت على انه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ٠٠ ،

\*\*\*

وفى ابان احتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه ، أصدر الأب جرجس فرج صغير المارونى مدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية فى قرنة شهوان ( ١٨٩٠ ) كتابا نهج فيه منهج الحوار بين خصمين ، سمي أحدهما بالانسان القردى وسمى الآخر بالانسان الآدمى ، وأدار الحجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض التفصيلات :

الآدمى - أين تجدون أشكال الانتقال من يد قرد الى رجل انسان ٠٠  
أفهل عشر على ذلك أحد علمائكم ، فان لم تعثروا على شيء من ذلك ٠٠٠  
فالانسان القردى لا يكون له وجود ٠٠

القردى - ان المباحث البالونولوجية « الحفرية » والحق يقال لم تأت بما يعرب عن تسلسل بين الانسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات ٠٠ على أن أساتذتنا قد أجمعوا على انه من المحتمل ان من الحيوانات التى على شكل حصان البحر ما يتحول الى حيوان قوائمه على شكل قوائم الخنزير ، وان منها ما قد يتحول الى الماعز ومنها الى الخرفان ٠٠ الخ

الآدمى - فان كان ذلك من طوابع المحتمل لا من أمارات اليقين ، فأين العلم الحقيقى الذى تعولون عليه ٠٠ ؟

القردى - نعم ٠٠ اننا لم نجد الى الآن أثرا الى الانسان القردى ، غير أن العلم لم ينفق ضناه

الآدمى - ولكن ماذا يكون هذا العلم الذى يقضى بخلاف الواقع ٠٠  
فاننا نرى الأنواع لا تتغير عن ذاتها وان كثرت فيها الأنسال ، فان قلت لا فارق بين النوع والنسل أسكتتك العلائم الفزيولوجية ونحن نحصرها فى أمر وهو النتاج

القردي - ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقون على شيء منه ٠٠ ؟

الآدمي - أو يكون الجهل في أصل شيء أو في علته حجة في انكار وجوده ، أفنفته ما للعلائم الجوية والأرضية من الأسباب والعلائق ٠٠ ونحن مع ذلك لا ننكر وجودها ٠٠ انا نعلم ان المولود من قران الفرس والحمار لا يكون الا عاقرا ، فنقول : لا بد من فرق نوعي في مولده ، ٠٠ أنجهلنا في رسم حدوده يمكننا من انكار وجوده ٠٠

القردي - ٠٠٠ الا أنى أعرف من أصحابكم من يقول بإمكانية مذهب التحول ٠٠

الآدمي - لا نجهل أن البعض من أصحاب الايمان يحبون أن يوفقوا بين التحول والايمان ، فيقولون : ان الله سبحانه قد جبل آدم من تراب قد عركته كثير من المولدين من الحازبار الى آخر حيوان ذى أربع قوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الاخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ونفخ فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وخالق معا . وأبين لك في غير مفاوضة كيف يعمه هؤلاء في الضلال ٠٠ ومن العجيب كيف لا يفقهون ان هذا المذهب انما تنفيه الفلسفة نفسها كما سبق بيانه ٠٠

القردي - أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تداخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ ٠٠

الآدمي - اذا افترضت تداخل الله سبحانه كان لابد من تعويض نفس بنفس ٠٠ أما هذا التعويض فيتم اما بوجود القرد الأول الذي تكبرن أو في بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق ٠ أما الأول فلأنه يفترض قتل الحي ثم اقامته أو ملاشاته ثم اقامة آخر بدله

القردي - قرأت في كتب بعض أصحاب مذهب التحول ان التمايز انما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعي ، فما قولك فيه ؟ ٠٠



الآدمي - قد سبقهم الى مثل هذا القول غيرهم من الملحدين الذين يؤيدون المادة . . ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يعولون عليه من فعل لصدفة في تمايز الكائنات

ان الصدفة لا تقع الا في الأشياء التي يمكن لها أن تكون على خلاف ما هي . . فقد يمكن للطاولة التي يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التي هي من الضرورة ، ودائما ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق . ولكن من الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الجواهر البسيطة وذوات الأشياء وحقائقها ومثل الأعمال التي تصدر عن فاعل لا يصادمه في فعله شيء ، كالجاذبية مع قطع النظر عن كل مانع يصادها في فعلها ، وعليه فان هذه الأشياء لا تقع عليها الصدفة . . أنظن ان للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلبا . .

. . ونحن نشاهد أن الحركات والأحداث إنما تلي تمايز الأشياء ولا تسبقها . . أي لا ترى ان السفينة لا تتحرك ولا تجري قبل أن يجعل كل من آلاتها في موضعه على هيئة من التمايز لا ينبغي أن يشوبه أدنى خلل »



وينفي هذا الحوار الى عجز « الانسان القردي » عن الجواب فيتبعه صاحب الكتاب بمناقشة مطولة لمذاهب الماديين يستند فيها الى حجج الفلسفة اللاهوتية ، ويقرر فيها أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفي لتحقيق النظر في أصل الوجود من حيث هو موجود ، ولهذا سمي البحث عن أصل الوجود بما بعد الطبيعة لأنه « ينبغي أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ، والمراد به علم يبحث عن الوجود من حيث هو موجود ، أي عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معانيها وأحوالها الخاصة التي ينحاز بها الشيء عما سواه ، وعلم يبحث به عن الأسباب الأخيرة للوجود والمعرفة ، فان كليهما لا ينفصلان ، لأن مبادئ المعرفة والعلم العالية المطلقة إنما هي التي تمكننا من الوقوف على أسباب الوجود . . ولذلك فانه يكون علم العلوم »



ولا نعلم ان كتابا في هذا الموضوع بقلم باحث مسيحي من كتاب اللغة العربية ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين في حقيقة مذهب داروين » لمؤلفه الأسقف خير الله اسطفان ناظر مدرسة عين ورقة الذي ألفه بعد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين سنة ( ١٩٢٩ ) أعيد في خلالها طبع مؤلفات الدكتور شبلي شميل في هذا المذهب ، ونشط البحث بين الأوربيين في نظريات النشوء عامة على أثر البحوث المتضاربة في نظريات تنازع البقاء واردة القوة وما إليها من « الفلسفات » التي أثارته الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحريين العالميتين . وقد أشار الأسقف الى الأطوار التي مرت بمذهب دارون منذ اعلانه الى تلك السنة ، فنقل كلاما عن العالم الألماني ادوارد فون هارتمان قال فيه انه « في سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأفاضل من العلماء الشيوخ لنظرية داروين شديدة ، وفي سنة السبعين أخذت هذه النظرية تنتشر في كل صقع تقريبا ، وفي سنة الثمانين كان نفوذ المذهب الدارويني عاما ومطلقا حتى كاد يبلغ بسموه سمت الرأس ، وفي سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تعتلي وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصدع والانهدام تبينت واتضح ، وفي العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معدودة ، وكان بين مضاديه وداحضى حججه من العلماء ايمر ، وغوستاف وولف ، ودي فريز Vrise وفون والشستين Wallstin وفليشمان Flischmann ورينك Reink وغيرهم كثيرون » .

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « ان البحث العلمي عندما يأتي بنتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العالم المسيحي وغير المسيحي عليها على غير تصاد ولا تناف ، وهذا هو عين الصواب والرشد لأن الحق لا يغير الحق ، ولا يتساهل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما انهم لا يسلمون لأخصامهم القائلين بالمذهب الدارويني . المحض ، وهذا بعض الواجب عليهم بالنظر الى ما يناقض حقائق الوحي المقدس ، غير انهم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية النشوء كانوا من هذا القبيل لينى الجانب لطفاء هينين . . فمن هؤلاء العلماء الاهواناء المتشددين الأب وسمان الجرمنى الشهير بعلم طبائع الحشرات الميال الى الاعتقاد بنظرية نشوء الأنواع المعتدلة ، القائل بأن أنواعا كثيرة من النبات

والحيوان نشأت من أنواع طبيعية أصلية أبدعها رب الطبيعة الخلاق ، كالأرانب  
 الأليفة والبرية والحمار والفرس والكلب والثعلب الخ ٠٠ فانك بهذا ترى  
 أن مبدأ الخلق والابداع لبث غير ممسوس البتة ، فاذا حل تصور اشتقاق  
 الأنواع الجديد بالتحدّر والتسلسل محل التصور القديم لنبات الأنواع على  
 عدم التغير كانت حكمة البارى فى الجديد أمجد منها بالقديم ، من وجه أنه  
 عز نواله وجل جلاله وضع فى الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحذير ونشر صور  
 جديدة لموجودات حية بدون افتقار الى توسط أو تدخل قدرة الله المبتدعة  
 للكون ونواحيه والمحتنية بحفظها وإدارتها ٠ وحينما تتصادم نظرية ما مع  
 التعليم المسيحى نصادما واضحا غير قابل لنشك ٠٠ يجب وقتئذ رفض هاتيك  
 النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا كل من قال بمبدأ نشوئى ينفى به  
 الحقة قطعا بدون رجعة يجب أن يضرب بقوله ومبدئه عرض الحائط ، وكل  
 نظرية تنكر خلقه العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن  
 تطرح ، وكل قول بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق  
 الانسان هو قول معقول لهذا هو مقبول ٠٠ لأنه ليس فى الكتاب الكريم  
 ما ينافيه أو ينقضه ٠ أما بالنظر الى أصل الانسان ، فالكاثوليك مقيدون  
 بنص سفر التكوين ، ويمكنهم التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة  
 الجسد ٠٠ فقد ارتأى بعضهم ان المقصود بقوله جبله من تراب الأرض انه  
 قضى ورسم الصورة وهى الهيئة وليس كما يجبل الفاخورى الجرة والابريق ،  
 وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكى والفلسفة الصادقة الرصينة يلزماننا  
 أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية بحتة وبذا تفرق  
 وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان »



وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف التى بنى عليها رفض تحول الانسان  
 عن غيره من الحيوان ، وهى تتلخص فى المطالبة بالحلقة المفقودة ، وهى  
 « لم ير لها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا فى الأحافير ولا فى  
 المتحجرات ٠٠ »

ثم سأل الأسقف : « اذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ »

فكان جوابه : « اننا نجيب مع العلماء النزيهين المجريدين من الأغراض والآهواء بالنفى ، وانه لا يضاد مقاصد الخالق وغاياته » واستشهد ببحث للدكتور مكوشى يقول فيه : « ان النشوء بجميع مذهبيه لا ينفى مقاصد وغايات البارئ عز وجل ، فالأستاذ هكسلى النشوءى الكبير والمادى المعروف بين الناس النشوء سلم يكون النشوء لا يلزم منه نفى مقاصد الله ، وان ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملهما معا لاتمام مقصد جيد أو آمال غاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للانسان والحيوان لهو دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصد الله . . فالذى يصنع آلة تعمل هي آلة مثلها ، لهو أحق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها ولا تعداه . . »



وفى سنة ( ١٩٣٧ ) ألف الدكتور حلیم سوريال الطبيب الأول السبعين أسيرول كتاب « تسميح مذهب دارين والانبیاء العلمى لتقيده الخلق » فيه فيه الى خطأ يسبق الى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب النشوء مقصور على رجال الدين ، فان من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالأستاذ فيالتون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ كاترفاج مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « اننا لا نعلم كيف تكرنت الأنواع الحية . . اننا نعلم فقط انها غير قابلة للتحويل واننا على يقين بأن دارون ولامارك لم يكتشفا الناموس الحقيقى للطريقة تكوينها » .

ثم سرد الدكتور سوريال أسماء بعض الأساطين عن علماء الطبيعة المعارضين لمذهب التحول ، وخلاصة رأيهم فى الاختلاف بين الأنواع « ان . . . تلك العوامل لا يمكنها أن تغير نوعا من الأنواع الحية الى نوع آخر وكل التغييرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها باثولوجية - مرضية - تقود الى انقراض النوع ، ولقد قال العالم الايطالى روزا ان الاختبار الاصطناعى الذى جربه بنو الانسان فى خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون . . »

ويقرر الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليست

بالناقصة بين الانسان وما دونه فحسب » فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الحائمية الوحيدة والحيوانات ذوات الحايا المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصلية ، ولا بين الحيوانات اللاقورية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات النديية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية . . . »

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أمثال هذه الملاحظات العلمية : « ان هناك مسألة منطقية بسيطة . . . وهي معرفة كيف استطاع المخلوق الذي يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين القرد والانسان أن يعيش بين الحيوانات الضارية التي تحيط به . . . فان أصحاب نظرية النشوء يقولون ان هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الانسان الحالي . . . فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل والذئب والنمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ . . . »

ويعتبر نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع - كما شرحها الدكتور سوربال - هي مشكلة المشاكل في تمحيص هذا المذهب الى اليوم ، وانها لا تزال على قوتها واقناعها بعد انقضاء مائة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعليق عليه بين خصوم المذهب وأنصاره الذين استجابوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة عند الاحتفال بذكر مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب

\*\*\*

ونحن نكتفي بالردود المتقدمة لأنها تمثل مناحى التفكير عند رجال الدين في مناقشة مذهب النشوء ، وهي :

١ - منحي الجزم بالرفض والحكم ببطلان المذهب في جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند الى أدلة قاطعة

٢ - منحي الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والايمان بأنه - اذا ثبت - لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، في الخالق . . .

٣ - منحنى القول بأن الأدلة العلمية التي يوردها العلماء لنفيه والتشكيك  
لحيه أرجح من الأدلة العلمية التي يوردونها على تأييده ..

\* \* \*

اما أنصار مذهب النشوء في الشرق العربي فقد كان أشهرهم وأفصحهم  
بيانا الدكتور شبلي شميل ، وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه الى الأخذ  
بالنظريات النشوئية على علاتها ، وقد سبق الماديين الغربيين الى نفى كل  
صفة روحية ، أو غيبية في الانسان ، اذ قال في مقدمة ترجمته لشرح بخنر  
على مذهب دارون « ان الانسان على رأى هذا المذهب طبيعى هو وكل ما فيه  
مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو  
أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا في ذهنه رسوخ  
النقش في الحجر .. فالانسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ،  
وليس في تركيبه شئ من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح  
والغيب ، فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى  
التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحيوان فزيولوجيا ، وكالجماد  
كيماويا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية  
والعرض لا الجوهر .. فالانسان يحس ، والحيوان يحس ، والانسان يدرك ،  
والحيوان يدرك ، ونواميس التغذية واحدة فيهما .. غير أن الانسان يدرك أكثر  
من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان » ..

وكانت ردود الدكتور شبلي شميل على مناقشته تكرارا لردود دارون  
ويخنر وغيرهما من انقائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١ - ان التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد النوع  
الواحد الا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ  
الانسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ - وان انصاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها الى  
زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم في  
انصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل  
والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطيسر العجيب ..

الاركويتركوس - الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات ..

٣ - ان العلماء يخطئون فى وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون « ان النباتى الانجليزى وستن يذكر ١٨٢ نباتا انجليزيا عددا غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد قال هوكر فى هذا المعنى ما نصه : ان النباتين يعدون الآن من ٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فالنوع اذن غير محدود .. »

٤ - ان التحولات لا ينبغى أن يبحث عنها فى الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له فى سلسلة هى التى كان يمكن أن يجرى بينها التحول فى أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها ..

ولا ننسى - عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين - ان الدكتور شبلى شميل انما يواجه بهذه الخصومة اللدود سلطان رجال الدين ، فانساق من هذه الخصومة الى خصومة الأديان ، ورأى كما قال فى مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصلها واحد ، وقيامها فى الدنيا انما هو لعاملين : حب الرئاسة فى الرؤساء ، وارتياح المرءوس الى حب البقاء ، وكلاهما لما فى الانسان من محبة الذات .. فسطا دهاة الناس على ساذجى العقول منهم ، فساد البعض وسيد على البعض الآخر ، وتم بذلك غرض الفريقين »

وخاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتولى ما بقى ، ولربما كان حظكم من ذلك فى الشرق أطول جدا لولا أن الغرب باسط فوقه يديه .. ولا تعلقوا النفس بما فى التاريخ من سقوط بعض الأمم .. أنقت اليكم مقاليد أحكامها وسلمتكم زمام أمورها ، فانه - وان حصل ذلك - الا أنكم لن تبلغوا أمانيتكم لتوفر معدات التقدم فى العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة »

\* \* \*

وبعد ، فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التى قوبل بها هذهب التطور فى الغرب وفى بلاد الشرق العربى ، نحسب أننا أتينا فيها ٩ - الانسان فى القرآن الكريم

على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين فى هذا المذهب ، وان الكتب التى اخترناها للاقتباس منها تمثل جوانب التفكير جميعا فى هذا الموضوع . .

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التى ذكرناها فى هذه النجالة ، وحتى نذكر ثلاثين سنة على أحدثها . . فاذا أردنا أن نعود إليها لنحكم عليها حكم الزمن الممحض للآراء ، فالدى نراه اليوم أن الدينين قد وقفوا الموقف المنتظر منهم فى معارضة النشرويين الماديين ، فليس من المنتظر أن يقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين . . وقد أصاب العلامة الشمين محمد رضا حين قال انه يدفع الشبهات عن العقيدة الالهية فى كل ملة ، ولا يقتصر دفاعه على عقيدة الاسلام



ولكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا - دينيا وعلميا - فى انكارهم باسم السدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الاثبات والنفى ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن اثباتها بما يقتلع الشك فيها . . كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم . . وقد كان لبعضهم عذره لقللة المعلومات الصحيحة التى وصلت اليهم عن مذهب دارون ومذاهب التطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوغ اندفاعهم الى درء الخطر عن العقائد الالهية يوم تعجل ثائرة التقليد ، فهجموا على المذهب على غير علم به كعادتهم فى الهجوم على كل جديد مستغرب ، وانتحلوه للثرثرة بأحاديث الاحاد والمروق . . فكان تعجلهم هذا داعيا الى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينين

بيد أنه - ولا ريب - تعجل وخيم العاقبة ، قد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعد مرة منذ ابتداء العلم الحديث فى نشر كشوفه المتواليه ، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدى للمباحث العلمية وهى فى معرض التحقيق بين الاثبات والنفى أو التغليب والاستضعاف ، وقد علم رجال الدين فى الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس ، وايجابهم تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض . . كان وجود الخالق جل وعلا من تبط بدوران هذه أو تلك ، وكل فى فلك يسبحون . .



لقد كان فى ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنهاهم أن يعيدوا مثل هذه الغلطة فى التصدى للمذاهب العلمية التى لم ينقطع الشك فى ثبوتها أو بطلانها ، وقد ينقطع الشك غدا بما يثبت على منكريها أنهم كانوا مخطئين فى فهم الدين والعلم على السواء . . فان زلزال المادية الذى اضطرب له الغرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجة على العقائد الالهية أقوى من هذه الحجة على الدين ، كما تصوره المتعجلون من « المؤمنين » على غير يقين . .

\* \* \*

ويشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه زمرة من العلماء لم يحسنوا التمييز بين قضايا العلم وقضايا الحقوق المدنية « أو الجنائية فى المحاكم ودواوين الشريعة . . فصاحب الدعوى فى المحكمة أو الديوان مطالب باثبات دعواه لأنها مصلحته الخاصة ، وفيها - إذا لم تثبت - اضرار بمصالح الآخرين . ولكن الدعوى العلمية ليست كذلك ، ولا يصح أن يناط أمر اثباتها بمن يدعيها وحده ، وهى مصلحة الناس أجمعين ، ومن ينكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين . .

وقد أفرط النقاد جدا فى التشبث بمسألة الأنواع الوسطى ، ولم يصطنعوا الأناة ليشاركوا ما فى هذه الحجة من الضعف والعمق ويلمسوا أن التشبث بها الى هذا الحد اخراج للخصم من قبيل اخراج الخصوم المنازعين على دعاوى المحاكم والدواوين

فكيف يخطر على بال الناقد المخلص أن الأنواع الوسطى تبقى لنا ذرية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبل استكمال خصائص النوع ؟ وكيف يقوتهم أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغى أن يترتب عليها من التريث والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف النسل بين الحيل والحير أو بين الذئاب والكلاب ؟ . . وإذا كان القائل بالنشوء يعجز عن إقامة الدليل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف بحال هذا العجز اليه ولا يحال الى الواقع الذى لا حيلة له فيه ؟ . . ان كثيرا من الاحياء الباقية الى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها فى عصور الحفائر المطمورة بين طبقات

الأرض ، فإذا جاز هذا فى أمر الأنواع التى بقيت ولا شك فى بقائها الى اليوم فكيف نستكثره على انصاف الأنواع التى لم تستكمل خصائص النسل والتوريث ؟

فليس من رأى السليم - دينا ولا علما - أن يرتبط رفض النشوء بعجز النشويين عن ابقاء أنواع وسطى من الحيوان غير قابلة بطبيعتها للبقاء والتوريث . وقد يحدث غدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو توجد الوسيلة الممكنة للتلقيح بين الأنواع المتقاربة ، فتعود الينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس يخطر على الدين والعلم لا داعية له غير التعجل والعنت فى الخصومة الفكرية ، وانه لعنت معيب يجوز فى خصومات المال ولكنه يحرم أشد الحرمان فى خصومات الأفكار والآراء . .

\* \* \*

وفى كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم فى شأن الانسان يعيننا هنا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الاسلام مذهب النشويين المؤمنين بالخالق ؟

وليس يخالطنا كثير من الشك ولا قليل فى خلو كتاب الاسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب . . فقد يثبت غدا ان المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الاسلام لا يصد عن سبيل العلم فى أية وجهة من هذه الجهات ، كما سنبينه فى موضعه من الفصل الأخير .

## الدين ومذهب داروين

نعود فنقرر فى هذا الفصل ما ختمنا به الفصل السابق ، فنقول ان مذهب التطور ايا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند اليه الملحدون لابطال الدين أو انكار الخالق أو القول بخلق الكون من دلائل القصد والتدبير

وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى الى عالين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر : هما شارلز داروين والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما منكرا لوجود الله

فأولهما - شارلز داروين - كان يقول انه يستريح الى الايمان بوجود الاله فى هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يلزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع المنكرين

كتب فى سنة ( ١٨٩٧ ) الى الاستاذ فراديس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : « اننى فى أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا اذا كان معنى الملحد انكار وجود الله • وأرى على العموم - وبخاصة مع تقدم السن - اننى أحرى أن أسمى ( لا أدريا ) وان هذا الاسم أقرب الى الصواب فى وصف تفكيرى •• »

وقال فى خطاب كتبه الى طالب هولندى ( فى الثالث من ابريل سنة ١٨٧٣ ) :

« ••• يبدو لى ان استحالة القول بأن هذا الكون العجيب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعى ، انما كان وليد المصادفة - هو أكبر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة اقناعه كما لا أستطيع أن أغضى عن المشكلة التى تنجم مما يتخلل هذا العالم من الآلام » •• »

وكتب اليه طالب ألمانى فى سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة التى يدعو اليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه . ويجيب غيره ممن يوجهون اليه هذه الأسئلة قائلا :

« ان مستر دارون يعتذر لكثرة الرسائل التي ترد اليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعا ، ويود أن يقول ان مذهب التطور يوافق كل الموافقة ايمان المؤمن بالله . . غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا في تعريفهم لما يعنونه بالاله »

وفيه من خلاصة رأيه في سيرته التي كتبها بقلمه ، انه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها الى الوحي الالهي ، وانه لم يقيم لديه الدليل على حدوث هذا الوحي في التاريخ ، ولكنه اذا أراد أن ينظر الى المسألة الالهية من جانب الانتخاب الطبيعي فان أنواع الأحياء كانت خليفة أن تضرب عن تجديد وجودها واستمرار نسلها لو كانت ضرور الحياة أكبر من حسناتها ، وهي الحجة التي يستند اليها الملحدون في انكارهم للمقاصد الالهية

وكان دارون على تردده في مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المندنين ولا يرتضى من العلماء أن يقتحموا مذاهبهم على سمائر الناس فيما اطمأنوا اليه من عقائدهم الروحية ، فلما أراد كارل ماركس أن يهدي اليه كتابه عن رأس المال كتب اليه معتذرا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز في موسكو : « اننى أشكر لك رسالتك الودية . . . وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدي الى حد مذكرى ليهنر التعمية ، اذ كان اعتدائه الى يتضمن على وجه من الوجوه اقرازي لما في سائر الكتاب الذي لا عام لى به . واننى - مع غيرتى على الدعوى الى حرية الفكر في جميع المسائل - أرى ، صواباً أو خطأ ، ان المناقشات المباشرة التي تناقض المسيحية والايمان بوجود الله قلما يكون لها أثر على جمهرة الناس ، وان خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعا لتقدم العلوم ، ولهذا أرانى أتجنب الكتابة في أمور الدين وأقصر كتابتى على المباحث العلمية »

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضى من العقل أن ينفي وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وان الايمان بأية ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل في قضية التطور الى الرفض أو الى القبول

أما «الفريد رسل ولاس» شريك دارون في القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعي وعوامل البنية الطبيعية ، فقد كان مؤمنا قوى الايمان بوجود الاله . . . كانت مراقبته لعوامل الطبيعة سببا نتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات ، لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل فى الطبيعة أنها لا تجرى على هذا المجرى لزاما بحكم العقل أو بحكم التفكير المنطقى ، وانها كان يجوز أن تجرى على مجراها هذا أو على مجرى آخر يساويه ويمثله فى حكم العقل والأقيسة المنطقية ، وانما هى الارادة الالهية التى أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التى يريد الله أنغرب من نظام العوامل المطردة فى ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا الى الارادة الالهية على اطراد أو على استثناء



ومن عقيدة صاحبى المذهب فى مسائل الغيب ، نفهم أن العلماء والمنكرين فى الغرب ينقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالما من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا بدلنا على رأى محدود براء فى الدين المسيحى أو فى الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أو المترددين ، حسب المنهج الذى ينهجه فى تفكيره وأساليب استدلاله

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية ، وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجسون » انفرنسى و « هوبتهد » الانجليزى ، وهو عدا اشتغاله العميق بالبحوث الرياضية والفلسفية رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت . .

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء فى مجمع العلوم الملكى كالأستاذ « جلدستون » الذى يقول : « كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركين أن هناك وحدة فى النظام ووحدة فى الغابة ، تبدوان من خلال النظر الى خلائق الله . . ونحن ندبن بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبر الإلهى أو فكرة النظام المقصود . . بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر الى الوسائل التى اختارتها العناية الالهية لتدبير

مقاصدها منذ القدم ، فنرى انها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة »

\* \* \*

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم في الإنكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات ، وأنه لا سبيل الى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين

وأشهر القائلين بهذا الرأي بين علماء الطبيعة « ارنست هيكل » الالماني و « توماس هكسلي » الانجليزى ، وهو أقرب الى الاعتدال في الإنكار من زميله ..

فهيكلي يقول : « ان العقيدة الدينية تعنى دائما تصديق معجزة خارقة ، وهى بهذه المثابة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء فى التوفيق بينها وبين عقيدة العقل الطبيعية ، وهى - على خلاف سنن العقل - تذهب الى فرض العوامل فوق الطبيعية ، ويحق من أجل ذلك لمن يشاء أن يسميها خرافية - أو غير طبيعية - وان ذلك الوحي المدعى الذى تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج التى وصل اليها العلم الحديث » ..

وهكسلي يقول : « اننا - أمام الأمور التى لا شك فى بعدها عن الاحتمال - لا نقول اننا محقرون فى طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع المعجزة الخارقة .. بل نقول ان الراجح الأدبى يتقاضانا أن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة الخارقة مأخذ الجد والاعتبار ، ولكننا اذا كنا - بدلا من الوصول الى ذلك البرهان المقنع - لا نرى أمامنا الا حكايات نجهل كيف نشأت ومتى نشأت بين أناس يستطيعون أن يصدقوا كل التصديق أن الشياطين تتلبس بأجسام الخنازير ، فانبنى أصرح بأن شعورى انما هو شعور الدهشة من أن أرى الانسان العاقل ينظر الى شهادة هؤلاء نظرة جدية ... »

\* \* \*

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان فى قبول مذهب التطور ، ولكنهما لا يتفقان فى الحكم على دلالة من الوجهة الدينية ،

ولكن هذا الاختلاف لا يرجع الى المذهب فى ذاته . . وانما يرجع الى طريقة النظر اليه وطريقة التفكير التى تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف ، فربما خرج الدهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراها الآخر مغنية عن البحث فى اثبات وجود الله ، وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك فى زمانه - لابلاس - عن مكان العناية الالهية فى حركات الأفلاك ، فكان جوابه انه لا يرى لها مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول ان قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيرا يغنى عن النظر الى علة أخرى وراءها ، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الدهن الذى يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستلزم حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وانه لابد - اذن - من البحث عن الارادة التى اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه . .

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكير يتعلق بالنظرة الى النظام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمنا بالعناية الالهية فطريقته فى التفكير أن يستدل بانتظام الخلق على وجود الخالق ، وأن يرى بعد ذلك ان المعجزة لا تستغرب مع الايمان بالقدرة الالهية والحكمة التى تستدعيها ، اذا كان هناك ما يستدعى صنع المعجزات فى رأيه

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيدة الدينية ، فطريقته فى التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لاثبات عقائد الدين

\* \* \*

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند اعلانه قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأى فى شئ ، وان هذه المعارضة ينبغى أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التى لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ، ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض . عالم من أكبر علماء الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكى وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأى فيه كله على هذه الفكرة سواء فيما يرجع الى مذهب التطور أو الى غيره من مذاهب العلم الحديث

## سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازى مذهب التطور ، ويتمشى معه فى معظم الطريق .. ولكنه لا يبتدىء معه من البداية ولا ينتهى الى الغاية ..

وصفوة القول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة فى ترتيب الضعة والشرف ، تبسدىء من المادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع الى «رتبة الوجود الالهى الذى تمحض له العلم والخير ، فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يجنب عنه شر ، وخير لا يشوبه الشر ولا يقح له قى ارادة ..

وعنه السلسلة العظمى قائمة فى انتظامها لكل خمسة من حلقات الوجود . وكل قابلية من قابليات الصفات والاعراض ، فلا تنزع السلسلة المتنامى من احدى هذه المراتب ، ولا يعقل أن توجد فى الامكان قابلية لشيء قبل ولا توجد فى الواقع من حلقة من حلقات الوجود السلسلى أو العلوى ..

\* \* \*

والرائد الأكبر لهذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكيم الالهى ، فهو الذى وضع هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناء على حجة عقلية . وحى ان الاله - وهو خير محض - يأبى له كرمه أن يضمن على شيء ، كائن ما كان ، بنعمة الوجود .. فمهما يبلغ من حقارة شأنه فهو مستحق لحصته من الوجود فى مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة الى ما فوقها بنعمة من الله وبما ركب فى طبائع الأشياء من شوق الى الكمال

والراجح أن هذا المذهب وصل من الهند الى حكماء اليونان من طريق المبادات السرية التى عرفت باسم النحل « الأورفية » وأسبق ناقله من كبار الفلاسفة اثنان هما : فيثاغوراس وامبدوقليس ، وكلاهما يقول بتناسخ الأرواح ، ويتنطس فى معيشتته على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعهما من كان يجمع بين التقشف ومراس الرياضة البدنية ويفوز فى مبارياتها العامة ..



وقد كان فيثاغوراس يتجنب أكل اللحوم ، ويقسم الأغذية الى صالحة للروح وغير صالحة لها لأنها بهيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحوم لأنها مأكلة السباع ويحرم أكل الفول وما اليه لأنه مأكلة البهائم ، ويحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط في درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضية ما يشبه مذهب الهند في الدورات الأبدية التي يحسبونها بعدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين الى شمسية وكونية .

\* \* \*

وجاء بعده امبدوقليس ، فقسم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالجدور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النار وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب

والعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عالمان : كبير وصغير . فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما اشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم Microcosm الصغير هو الانسان ، لأنه يحتوى فى تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع الى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التى تمت للاله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط الى مرتبة البهيمية وما دونها ، وفى الانسان شئ من خصائص الأجسام المسادية ، وشئ من خصائص الأجسام النباتية ، وشئ من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشئ من خصائص الروح الذى يكون للملائكة بغير جسد ، وشئ من المعرفة التى يقترب بها من الصفات الالهية .

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان الى العرب ، وانتقل من العرب الى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجل تسنم عرش البابوية فى آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر ( ٩٩٩ م ) وهو سلفستر الثانى ، وظهرت آثارهما فى أقوال القديس توما الاكويينى والهرت الكبير « ويرى الاستاذ آسين بلاسيوس الاسبانى أن نزعات دانتي الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محيى السدين بن عربى بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين - جوهان

اكهارت الالماني - نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس ، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم (١) »

\* \* \*

ولعل اكهارت هو أسبق المقتبس من المتصوفة الغربيين لقول ابن عربي ، ان الله هو الوجود الحق وان كل ما عداه من موجود فوجوده عارية ، وهو قول في جملته يعيد الى الذهن قول أفلاطون ان الله هو مقياس كل حقيقة ردا على بروتغوراس Protogoras الذي كان يقول : ان الانسان هو مقياس الوجود ، وان الله أنعم على الانسان بالحياة « الزمنية » لأن الزمن محاكاة للوجود الأبدي الذي اختص به الاله دون سواه ، وليس بين القوانين تناقض في النهاية ، لأن أفلاطون يعود فيجعل العقل - صفة الله العليا - درجة يبلغها الانسان ولا يدركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة المادة التي تمتزج بالعقل في تكوين الانسان ..

\* \* \*

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر في توجيه عقول الأوربيين منذ القرون الوسطى الى مذاهبهم أو أقوالهم ، في سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس ، وقارب بين النبات والحيوان ، فجعلهما مشتركين في « النفس » النامية ، وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن في تصنيفه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذاتي » كان في تقديره من الممكنات ، وانقضت بعده القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان من غير الحيوان

وتقبل اللاهوتيون الأوربيون فكرة السلسلة العظمى ، كما وصلت اليهم من مفكرى العرب ومتصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا ينكرونه بين القول بخلاص الانسان بالايمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الالهية التي يتحلى بها الانسان ويعلو بها من أفق الحلائق الدنيا الى أفق النعمة

(١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية للمؤلف

الالهية ، وان الانسان بمعرفته للأشياء يحتويها ويملكها ويؤمن على تدبيرها  
محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير لمخلوقاته ، فان التناقض بين خلاص الانسان  
بالإيمان وخلاصه من أهواق المادة بالعقل والمعرفة ، يبطل ويزول متى اعتقد  
المفكر أن العقد الرشيد سبيل الى الايمان بالله والتعويل على البركة الالهية في  
تطلعه الى النجاة والخلص

\* \* \*

ولم يصطدم الرأيان من بعض الجوانب الا بعد ظهور فلسفة ابيلارد  
( ١٠٧٩ - ١١٤٢ م ) الذي فسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية  
تستوعب كل الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شيء غير ما هو موجود ، لأن  
الخالق في علمه وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها  
يتعلق بعلمه وارادته ، فأنكر عليه معاصره برنارد دى كليرفو ( ١٠٩١ -  
١١٥٣ ) داعية الحرب الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال انه يناقض ما  
ينبغي أن نؤمن به من غضب الله على الخطيئة والرذيلة ومن انعامه بالخلص على  
الخطاة ، وكان القديس توما الاكوينى ( ١٢٢٦ - ١٢٧٤ ) يميل الى تأييد  
برنارد فى اعتراضه على تفسير ابيلارد ، ويكاد يعيد ردود الغزالي على ابن  
رشد فى مثل هذه المناقشة ، فيقول : ان خلق الله لهذه الموجودات على سنتها  
التي أودعها فيها لا ينفي قدرته على خلق غيرها زائدا عليها ، ولا ينفي قدرته  
على خلقها مرة أخرى فى صورة غير هذه الصورة ، فليس انتظام سلسلة  
الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات وسلسلة غير هذه السلسلة  
مع استيعاب الله لجميع الممكنات ، لأن التبدل فى الممكنات غير مستحيل .

وجاء بيكودىلا ميرندولا ( ١٤٦٣ - ١٤٩٤ ) Pieo della Mirandola

فقال بما كان يقوله المتصوفة المسلمون من قبول الانسان لأرفع المراتب  
وأدناها ، وان كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعدوه ما  
فوقه ، الا الانسان . . فانه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان  
الذى يرتضيه لنفسه ، علوا الى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا الى مرتبة  
البهائم والحشرات

\* \* \*

وعاد البحث فى مكان الانسان بعد كشف كوبرنيكوس لدوران الأرض

حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليقة ، وعن مكان الانسان على هذا المركز المختار ٠٠ قد يجوز أن يكون للعالم الأرضى نظراء له من العوالم السماوية وأن يكون لتلك العوالم سكانها من الخلائق العقلاء ، ولكن هذه المناقشة لم تززع أساس الفكرة التى تسلسل الموجودات من أدناها الى أعلاها فى العالم المعروف ، وفى كل عالم يمكن أن يعرف قياسا عليه ، ظلت فكرة السلسلة العظمى غالبية على الباحثين فى مركز الانسان من الخليقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين الى زمن قريب ، وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الانجليزى اسكندربوب ( ١٦٨٨ - ١٧٤٤ ) قصيدته الكبيرة التى سماها مقالة عن الانسان ، وقال فيها يخاطب الانسان

« اعرف اذن نفسك ، ولا تدع الاحاطة بعلم الله

» ان دراسة الانسان المنلى هى الانسان

» قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى

» مختارقا فى ظلمة ، عظيمما فى خشمونة

» أعلم من أن يكون « شكوكيا » لا يدري

» وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصبر

» معلقا بين العمل والراحة

» معلقا بين الالهية والبهيمية

» معلقا يتردد بين ايثار عقله أو بدنه

» يولد ولكن ليموت ، ويعلم ولكن ليخطئ

» يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد

» ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة

» وهو هو الذى يسىء الى نفسه أو يتجنب الاساءة

» مخلوقا نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر

» سييدا لجميع الأشياء وفريسة لها جميعا

» وهو الحكم الوحيد فيما هو حق وباطل ، ولكنه يضطرب فى خطأ

» دائم

» ولا يزال فخر الخليقة ، وسخريتها ، ولغزها الغامض ، فى آن

وهذا هو مكان الانسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى التي اذا انكسرت احداها وقع الخلل فى سائرهما »

وجاء بعده شاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيدة الفصول ( ١٧٤٨ - ١٧٠٠ ) فنظم الوجود من طرفى هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذى لا حد له ، وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المرهوب »

\*\*\*

وتوقف البحث فى سلسلة الخلق العظمى بعض التوقف بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع .. ولا نعتقد أن الانقطاع عن البحث يعرض لمسألة الانسان ومركزه من الكون فى زمن من الأزمان ، وانما انقطع البحث فى مذهب التطور وفى علوم الاحياء عامة وعلم الانسان خاصة على هذا النطاق الواسع الذى يشمل اليوم علم الحياة : « البيولوجى » وعلم الحياء « الزولوجى » وعلم الأجناس البشرية « الاثنولوجى » وعلم الانسان « الأثنولوجى » عدا مباحث شتى تتصل بالمعلومات العامة عن الانسان ومركزه بين الكائنات فى آراء علماء الطبيعة وآراء الفلاسفة والمفكرين .

\*\*\*

ونعود الى السلسلة العظمى عند الترب الذين نقلوا أهم مصادرها الى الأوربيين ، فنقول انهم عرفوها - كما تقدم - من مصادر شتى ولم يجعلوها دستوراً عاماً يحيط بالموجودات ويقرر للانسان مكانه على مذاهب القائلين بتلك السلسلة ، لأن مكان الانسان كما ورد فى آيات القرآن الكريم اغذاهم عن القول بمكان له ينسبه الى سلسلة الخلق ، ويلحقه بها لزاماً على طريقة الأقدمين فى الحاقه بغير الخلائق الآدمية ..

وانما عرفت الحكماء العرب أقوال تشير الى ترتيب السلسلة فى مواضع متفرقة من بحوث العلم أو الدين ..

ومنها ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم فى فصل « التطور قبل المذهب بالتطور » من هذا الكتاب

ومنها الكلام على « النفس والروح والعقل » والتفرقة بين مراتبها .

ابتداء من النفس التي كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة في الخلائق النامية ،  
الى الروح التي تعلو على النفس في هذا الاعتبار ويمتاز بها الانسان عما دونه ،  
الى العقل وهو الصفة الالهية التي يتحلّى بها الانسان ويقترب بها من أفق  
الخالق أو المحرك الذي تقترب منه الموجودات بمقدار حركتها اليه ، وأشرفها  
حركة الانسان الى المعرفة وشوقه الى الكمال

\* \* \*

وعرف القول بالعالم الأكبر والعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء في  
آيات تنسب الى الامام علي بن أبي طالب ولم تتحقق نسبتها اليه ، ومنها عن  
الانسان :

دواؤك فيك وما تشعر  
وداؤك منك وما تفكر  
وتزعم انك جرم صـفـيـر  
، وفيك انطوى العالم الأكبر

\* \* \*

ووافق القول بنجاة الانسان بعقله ما ورد في آيات القرآن الكريم من  
الأمر بالتفكير والتدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الاسلام ثم فرق  
المتصوفة والمتنسكون بين ضربين من المعرفة أحدهما يستقيم بصاحبه على  
سنن الهداية ، والآخر يلتوى به دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن  
مسكويه بعد كلامه المتقدم في فصل آخر : « ان هذا التشوق ربما ساق  
الانسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهي الى غاية كماله وهي سعادته  
التامة . وقلما يتفق ذلك . وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك  
لأسباب كثيرة يطول ذكرها . . ولا حاجة بك الى علمها الآن وأنت في تهذيب  
خلقك . فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت الى ما ليس بتمام  
للجسم الطبيعي لعل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق الى أكل  
الطين وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده - كذلك  
أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت الى النظر والتمييز الذي لا يكملها ولا

يشوقها نحو سعادتها بل يحركها الى الأشياء التي تعوقها وتقصّر بها عن كمالها ، فحينئذ يحتاج الى علاج نفساني روحاني كما احتاج في الحالة الأولى الى طب طبيعي جسماني ، ولذلك تكثر حاجات الناس الى المقومين والمنفعين وإلى المؤديين والمسددين . فان وجود تلك الطبائع الفائقة التي تنساق بذاتها من غير توقف الى السعادة عسرة الوجود لا توجد الا في الأزمنة الطوال والمدة البعيدة . وهذا الأدب الحق الذي يؤدينا الى غايتنا يجب أن نلاحظ فيه المبدأ الذي يجري مجرى الغاية ، حتى اذا لحظت الغاية تدرج منها الى الأمور الطبيعية عن طريق التحليل ثم يبتدىء من أسفل عن طريق التركيب . . . . . وينبغي أن يعلم أن كل انسان معد نحو فضيلة ما ، فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أخرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، الا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهي الى غايات الأمور والى غاية غاياتها ، أعني السعادة القصوى التي لا سعادة بعدها . »

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها الى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة الدنية ما يدركه الانسان بالالهام والاستشراق ويهتدى اليه بريضة النفس وقمع الجسد ، وهي معرفة غير معرفة التعلم والدراسة ، على حد قول سعيد بن أبي الخير فيما روى من كلامه عن ابن سينا « ان ما يرى على ضوء المصباح وصل اليه هذا الأعمى بعكازه »

ويتممه قول ابن سينا عن الحدس الصادق أنه حالة يقابل بها عقل الانسان مصدر العقول جميعا ، فيدرك بالالهام والتوفيق ما ليس يدرك ابتداء بالدرسي والبرهان

\*\*\*

وفي غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة الاسلام الامام الغزالي في حكمة الموجودات وحكمة خلق الانسان بين خلائق السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما يقال عن سلسلة الخلق العظمى بتفسير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم . . .

# الإنسان في عالم الحيوان

## وفي علوم الأجناس البشرية

الإنسان من الفقاريات Vertebrates ، ومن الأوائل Primates بين الفقاريات . . .

وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشريات Anthropoids وتشمل الإنسان والقردة العليا ، وهي الغوريلا ، والأورانج ، والشمبانزي ، والجيبون ويختص الإنسان من بين البشريات باسم يميزه وهو اسم الانس Hominidae كما يختص القردة على عمومها باسم النسانيس Simidae فيفرقها هذان الاسمان حيث يجمعها اسم البشريات

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الانس يطلق على الكائن الذي وجدت بقية من مجتمه في حفائر جاوة وأطلق عليه الدكتور دبوا Dubois الذي وجد تلك البقية اسم Pithecanthropus Erectus لدلالة بقاياه على قامته وامتيازه باتساع الدماغ على البشريات ، ولكن الرأي الغالب اليوم أن النوع الانساني بمزاياه التي بقيت له الى اليوم مخالف في الخصائص الانسية لصاحب تلك الجمجمة ، وان هناك اختلافا غير قليل بين أناس الحفائر من قبيلة وبين الانسان الذي يطلق عليه اليوم اسم الحيوان الناطق أو العارف أو المميز Home Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين « هومو » بمعنى بشر - و « سابين » بمعنى ذى فهم أو ذى ادراك أو ذى كياسة

\* \* \*

وننقل هنا خصائص النوع الانساني في علم الحيوان ، كما أنبتها فيقدم الكتب العلمية التي بحثت مذهب التطور باللغة العربية ، وعينت بإيراد أوجه الاعتراض عليه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وغيره من البشريات من الوجهة التشريحية كما قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ونعني به كتاب « تنوير الأذهان في علم حياة الحيوان والإنسان » مؤلفه الدكتور بشارة زلزل - وقد صدر الاذن بطبعه من



مظارة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ و تم طبعه بعد ذلك بمطبعة مجلة الجامعة فى الاسكندرية

قال المؤلف فى الصفحة ( ١٦٧ ) من المجلد الأول : « فاذا نظر الى الانسان على سبيل المقابلة بتلك القروود التى هى لا شك أقرب الحيوانات اليه ، يرى أن الانسان ماش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة فى العنق وفى الظهر وفى الصلب ، وليس للقردة شئ من ذلك . وعلّة ذلك على ما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدى الى كبر القحف ، فتتغير الجلدة بدليل عدم استوائها فى الأطفال . وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على العمود الفقرى ، وقالوا ان الأقواس الثلاثة المذكورة تكون فى المتمدنين أوضح مما هى فى المتوحشين . وعلى الجملة فان موازنة الرأس مع البدن فى أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهى قوية جدا فيها وفى القردة بالعضلات المتينة التى تندغم فى القذال والسناسن ( النتوءات الشوكية ) وهى فيها أطول وأغلظ مما فى الانسان بضعفين ، ويتوقف عليها وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى فلا يضغط على الصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك فى الانسان لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهى فيستوى الرأس على الهامة بدون أن يكون للعضلات والأربطة العنقية الا المحافظة على الموازنة المذكورة ومقاومة ميل الرأس الى الأمام . ولذلك كانت الأربطة فى الانسان ضعيفة . قال الأستاذ بروقا Procea وتابعه كثيرون ، ان السبب فى انتصاب قامة الانسان واستوائه ماشيا على قدميه انما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة والنظر متجها الى الأفق . وطفل الانسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقى الا متى ابتداء الطفل أن يضبط رأسه فى الجلسة التى يعود عليها ، وذلك فى الشهر الثالث من عمره . وفى السنة الثانية غالبا يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقرى ، وذلك اذ يبتدىء الطفل أن يدرج

« وبالجملة فان الخاصة التى يصدر عنها حسن تقويم الانسان ويتوقف عليها امتيازها على سائر الحيوان ، وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم فى المدنية

إنما هي نمو الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ في الأوربيين يكون متوسطه في الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفي النساء ١٢٠٠ غرام ، وأعله ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما . . وما نقص عن ذلك يدل على البلاءة لعدة أو آفة

« والقرد الشبيهة بالانسان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعدل وزنه المتوسط فيها ٣٦٠ غراما، وغاية ما بلغه في الأورانج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ . . وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البروز الوجهي ، والفرق بين الانسان والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين ، فاذا نظرت الى جمجمة انسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهي بخلاف ما اذا نظرت الى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . واذا نظرت الى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه شاخصا الى الأمام يؤلف خطا مستطيلا ، وذلك من الخصائص البهيمية . ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية . وفضلا عن ذلك فان الجزء الوجهي للعظم الوجني قليل النتوء في الانسان بخلاف ما هو عليه في القرد ، واذا نظرت الى الجمجمة من وراء لا ترى الثقب المؤخرى في جمجمة الانسان وتراه كله أو قسما منه في جمجمة القرد . وهذه الأعراف الدالة على الشراسة والصفات البهيمية في القرد غير موجودة في الانسان ، وهي لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التي يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضلات القذال التي يتوقف عليها اسناد الرأس على العنق ، ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمي في ابان نموه أن يهيم لها مندغما ، فنشأ عرفا . والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد في القرد الصغيرة . ومثل ذلك يقال عن النتوءات الشوكية البارزة في عنق الغول ، ولما كانت هذه الأعراف والنتوءات أصغر في الأوران مما هي في سائر القرد لم يتوازن رأسه على بدنه ، فيرى الحطم الثقيل مدلى على صدره ، ولذلك خص بالأكياس الحنجرية تلطيفا لضغط خطمه على مجرى الهواء . أما الجيبون فخطمه صغير وأعرافه قليلة النتوء والأكياس الحنجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القرد الى الانسان ولكن طول ذراعيه يبعده كثيرا عن الانسان ، لأنه يتوكأ عليهما في مشيه كما يتوكأ الانسان على هراوته . .

« ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرد ابهام الرجل ، فهو في القرد أشبه بابهام اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك في الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشي وانتصاب القامة كما أنه يناسب في القرد حالة التسلق والامساك

» ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها ٠٠ فأسنان الإنسان بالنسبة الى جسده أصغر مما هي في القرد ، وإذا تأملت في الصورة راعتك من منظر الغول أنيابه ٠ أما التواجد والطواحن في هذه الحيوانات فكبيرة جدا ، بالنسبة الى طول القسم الوجهي من الجمجمة ٠٠ وما عدا ذلك فان وضع الأسنان في سنخ الإنسان على نسق منتظم خلافا لما يرى في القرد حيث يتخلل نابي الفك العلوي وثناياه خلاء تتداخل فيه أسنان الفك ٠٠٠ والخصائص المميزة للإنسان تزداد وضوحا بتقدم المدنية وال عمران ، لأن اختلاف طرق المعاش يؤدي الى تنوعها فتبتعد عن الحالة الطبيعية كما ترى في أقواس العمود الفقري ، فانها في المتمدنين أكثر وضوحا مما هي في المتوحشين »

وترجع علوم الإنسان الى علم الحيوان لدراسة توارخ البشر الاجتماعية ، كما ترجع اليه أحيانا في دراسة تقدمهم الثقافي منذ وجد الإنسان بخصائصه المعروفة للحيوان الناطق Homo Sapiens وقبل وجود هذا الإنسان في العصور السحيقة التي استخدمت فيها الآلات على شيء من الحشونة البدائية ٠ ويشيع - من أجل هذا - أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كما بسطه لامارك ، وكما بسطه دارون من بعده ، ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التي تجمعت من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين واللغويين بين أرجاء العالم القديم والعالم الحديث ٠٠ قد كان لها أثرها البين في مذهب التطور وفي سائر العلوم الانسانية المتعددة ، ومنها علم السلالات وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغات

\* \* \*

ومحصل هذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الانسانية أن البشر وجدوا وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر « الميوسيني »

Miocene قبل نحو مليوني سنة ، وانهم كانوا يومئذ على حالة متوسطة بين الحيوان الناطق وطبقة بشرية دون هذه الطبقة ، ثم تميزت بخصائص الانسان بعد ابتداء العصر الجليدي منذ نحو مليون سنة ، ولكن الانسان الذى استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلى قبل مدة تتراوح فى تقدير العلماء بين مائتى ألف ومائة ألف سنة . وكانت بداية انتشار الجماعات الانسانية بين القارات الثلاث منذ العصر الحجري الأول ، ثم تلاء العصر الحجري الحديث الذى تميز فيه الانسان بأكبر مزاياه ، وهى الحياة الاجتماعية والقدرة على استخدام الآلات والنار وتسخير سائر المخلوقات ، وتدجين الأوابد على مراحل متتابة ، أولها مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به فى الصيد ، وتأتى بعدها مرحلة تدجين الماشية والحصان للاستعانة بها فى الزراعة وفى الانتقال من مكان الى مكان حيث يوجد الكلاً والماء

وفى هذه المراحل ملك الانسان زمام الخليفة ، وبلغ المنزلة التى استحق بها أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، وتمهد له سبيل السيطرة على الحيوان والنبات وظواهر الطبيعة حينما احتاج اليها ، ويعتقد بعض علماء السلالات البشرية ان الانسان تقدم شأوه الأول فى صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شأوه الثانى - والأهم - فى صراعه بينه وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته فى شأوه الأول وملكاته فى شأوه الثانى بمقدار اتسع الفارق بين الحيلة التى تلزم للتغلب على الحيوان والحيلة التى تلزم للتغلب على أمثاله من الآدميين ، ثم تلزم لابتداع وسائل أخرى للتغلب كلما تساوى الناس فى وسائلهم المشتركة

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلامة واحدة ، لا تختلف فى الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عنصرى كالفوارق التى تختلف بها اليوم سلالات البشر من سكان العالمين القديم والحديث .

\* \* \*

ولكن ابتداء التغالب بين البشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف السلالات على حسب الاقليم والمناخ والقدرة العقلية على الاحتفاظ

بالمسكن أو على الهجرة منه الى غيره ، ويعزى الى هذا التفرق ظهور السلالات الأربع المشهورة . . . وهى التى تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختلفة ، أوضحها أسماء ألوان البشرة ، وهى البضاء ، والسمراء ، والصفراء ، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلماء أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة الى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تثول الى تلك السلالات الأربع عند التمييز بينها بأشكالها وملامحها الجسدية

وأبرز الفوارق بين السلالات - غير لون البشرة - شكل الشعر والأنف والفك وطول القامة . وقد تعرف القرابة بين السلالات التى انفصلت بين القارات بما بينها من التقارب فى شكل الشعر دون غيره . . . فيرجحون أن سكان أمريكا الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصل واحد ، لا بينهم من التشابه فى استقامة الشعر وخشونته ولونه الضارب الى السواد . وقد أمكن اليوم تعليل أبرز الفوارق بين سلالات البشر بأسباب المناخ والاقليم ، فنسب الأنف الأفطس والجلد الأسود الى فعل الحرارة ، كما نسب الأنف الأقنى الطويل والجلد الأبيض الى برد الاقليم واحتياج سكانه الى وقاية الرئة واستغنائهم عن الصبغة الجلدية حيث يلفظ وقع الأشعة على البشرة . . . وبمثل هذا السبب يعللون اختلاف الشعر بين النعومة والتموج وبين الخشونة والتجعّد ، وبين الشعر الحريرى والشعر الصوفى فى الشكل والملمس ، ولا يصعب تعليل خاصة عنصرية واحدة بعلة - أو مجموعة من العلل - ترجع الى المناخ وأحوال المعيشة

الا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الجسدية تعليلها بأسباب المناخ وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغة لأنها قابلة للضبط والتقسيم ، أو هى أدنى الى التقسيم بالضوابط والعلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد

واللغات - فى تصنيف بعض علمائها - قد تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التى تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاختلاط لاشتراك الأمم فى لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها الى أصول متباعدة فى أجناسها وعناصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب

تكوينها وتكوين الكلمات وقواعد النحو في مفرداتها وتراكيبها ، وهو تقسيم يضبط الفوارق بينها ضبطا كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر في تراكيبها وتعبيراتها

وتنقسم اللغات من حيث التكوين الى لغات النحت ، وهى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق . . . لغات النحت هى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، وتسمى هذه اللغات بالغروية فى اصطلاح الأوربيين : Agglutinative

ولغات التجميع هى اللغات التى يقع فيها النحت ويعمل فيها التنعيم عمله فى اختلاف المدلول مع الزيادات التى تدخل على الكلمات أو تضاف إليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله فى جملة تتألف من عدة مقاطع مرتبة أو غير مرتبة على نسق واحد فى جميع الكلمات ، ويغلب على اللغات التى تتكون هذا التكوين أن تسمى بالمجمعة Polysynthetic مع وصفها بالغروية الى جانب التجميع

ولغات الاشتقاق هى اللغات التى يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة ، وتجربى قواعد العرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة فى أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة . .

\* \* \*

ويشيع النحت فى اللغات الهندية الجرمانية ، كما يشيع التجميع فى اللغات المغولية ولغات القبائل الأمريكية الأصلية الاشتقاق . . فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق وإطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة . .

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت فى تطور هذه اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون سائرها . ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أسبق من الكلمات الارادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الانسان عفوا من الأصوات

والصيحات التي تعبر عن الفرح أو الفزع أو الدهشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيانا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopaeic كاسم البلبس . والككو ، وألفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجرى فيه على القياس والاستعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على التشابهات لفظا أو لفظا ومعنى ..

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم في الثقافة تلك اللغات التي انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبارات Syntax ويضاف الى الظواهر الصوتية بالصرفية والعبارية في قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص في الصفات اجمالا وفي المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهي جميعها من المزايا التي لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا اذا جاز ذلك لمن يكتفي بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها

\* \* \*

ففي صدد الكلام على التطور الانساني ، وعلى تطور الانسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للباحث أن يشير الى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الانسانية الكبرى ، وهي خاصة النطق والتعبير

فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل لا شك فيه على سبق اللغة وتقدمها على لغات الارتجال الجراف في وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة في فعل كل مادة وفي تصريف الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير في التعبير وتعميمه على الأحداث والمعاني غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوضع الحقيقي والوضع المجازي في كلام المتكلم لتوسيع المعاني وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات

وفي قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأجناس البشرية بقول منها ، ويتعد بعض الابتعاد عن قول مخالفه .

ورأى يرى واليوت سميث أن الثقافات البدائية في العالم المعمور تنتمي الى أصل واحد وهو أصل الثقافة بوادي النيل ، ومنه انحدرت الى القبائل القريبة ثم الى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك في أصوله ، وانه يشمل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ووادي النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين

والرأى الذي يأخذ بالمفهوم المنطقي ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الإنسان الناطق حيثما وجد في بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية تبدل عليها الآثار والمخلفات ، ولا مانع عند أصحاب هذا الرأي من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وإن جاز الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ . .

\* \* \*

والآن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الإنسان الناطق ، وعلى ثقافته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا « النوع » يقوم على مفترق الطرق بين وجهات أمس جميعا وبين قبلة في الغد المجهول قد تستقيم به على نهج غير مسبوق ، وتشعر له دستورا من العلاقات بين أقوامه وآحاده لم يعرف لها مثال في حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة

ان الأشواط الغابرة قد انقضت - كما تقدم - على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان للغلبة على سيادة العالم المعمور

ولا تزال المرحلتان ماضيتين في عملهما السياسي والاجتماعي ، وفي عملهما الفكري والأخلاقي ، فان تسخير الذرة إنما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته الى غايته حتى أواسط القرن العشرين \* وأن



الصواريخ الموجهة بين القارات إنما هي امتداد السلاح الحجري قبل الوف القرون ، ويتساءل المستطلعون للغد - من علماء الدراسات البشرية وغيرهم - هل من جديد ؟؟؟

فإن يكن شك في الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تنبئنا أن القديم غير القديم ، وأن التغيير الذي طرأ على القديم إنما هو هذا التقارب الدائم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل إلى الأعمال في مصالح الأمم والجماعات ، وهذه الوحدة العالمية التي لا تنفصل فيها جماعة من الناس بخطر يصيبها ولا يصيب معها القريب والبعيد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطبقات ..



بقى الصراع بين الأمم وتغير منه أنه كان بالأمس صراعا بين أمتين لتغليب احدهما على العالم المعمور حول الأمتين ، فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أمم العالم كله لتغليب نحلة اجتماعية أو « ايدولوجية » على العالم كله بسلاح القوة أو سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو الغد المجهول الذي يطالع الانسانية باحدى حالتين : وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة « التضامن » والتسامح ولو بين المتخالفين في تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب جائحة تتول بالثقافة والآداب النفسية والعقلية إلى الشتات والانتكاس ، وتعود بالأمم إلى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى إلى جاهليتها المتروكة منذ دهور

وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك البعث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من وسائل النظر إلى الواقع المعلوم والغيب المجهول

## الإنسان في علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعي التي عبر عنها أرسطو بقوله : « ان الانسان مدنى بالطبع » وجعلته نموذجا وحيدا. في الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعي ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الانسان ..

واسم « الانسان » وحده باللغة العربية يغنى عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساسا للالفة الاجتماعية حين تنسب لغيره . وقد لعب الشعراء بما في الكلمة من الجناس اللفظي فقال أبو تمام :

لا تتسبين تلك العهود قائما

سبسميت انسانا لأنك تاسي

وقال غيره :

وما سمى الانسان الا لنسيه

ولا القلب الا انه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديما وحديثا تبين لنا عن أصل هذا المعنى .. فالمكان الأنيس هو الذي يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذي يألف. الانسان في مسكنه ، وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش

ويسرى هذا المعنى الى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية في الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطئ المأهول ، ويطلقون اسم الخلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التي لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الانسان ولا الحيوان في عشرة طويلة

ان الحضارة الأوروبية - منذ عهد الفلسفة الاغريقية - لم تهتد الى

مذهب محيط « بالانسان الأخلاقى » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه الى لباب المذاهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة

أما الحضارة العربية فصفة الانسان فى لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهبا تقابله مذاهب أخرى فى معناه أو غير معناه . ان صفة الانسان فى هذه الحضارة العربية هى اسمه الذى لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « تنبت » هذه الصفة من البداية حيث يتضح الفاصل بين خصائص الأنس وخصائص الرحشة غاية الاتضاح

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تمتاز بطابعها فى تعريف الانسان الأخلاقى ، أو الانسان صاحب الضمير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات

فالانسان فى الحضارة الانسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه ، وظاهره تحكمه قوانين السلوك العلى ويقاس بالمقاييس الاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistie وتسمى هذه القوانين بأداب الميامزا Miamsa ويظن أنها وفدت الى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءتها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الانزواء والهزب من الحياة

وباطن الانسان يستقبل باطن الوجود ، ويسمون فلسفته بالسانيسا Sannyasa أى فلسفة التجرد من المادة ، وطلب الخلاص من لعنة الولادة والموت بانكار الجسد وقمع الشهوات الدنيوية والعزوف عن صفائر الحاجات وكبائرها على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستمدا فى النهاية من أصوله الهندية ، وان كانت نهاية المذهب الى « اليوجا » التى تجعل الجسد والطبيعة كلها تبعا للرياضة الروحية .

وحضارة الصين تميز الانسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوروبية التى جعلته « حيوانا ناطقا » اجتماعيا كما توافقت تعريفه العلمى الذى يعنى أنه مخلوق مميز ومخلوق صاحب ذوق واحساس Homo Sapiens على حد اسمه المأخوذ من اللاتينية . ولكن المعرفة فى مذاهب الصين وهى « الزن » Zen ليست علوما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القضايا والبراهين

وانما هي حالة كحالة الرشد الذي يبلغه الشيخ المحنك بالنسبة لغرارة الطفولة ، قوامها القدرة على مقابلة الحوادث والأشياء مقابلة التصرف الرشيد ، لأسباب قد تعرف عند الشرح والتفصيل وتعرف لها براهينها وأسانيدها بالمعاني والكلمات ، ولكنها حاضرة قبل ذلك حضورا ساكنا رصينا في الذهن بغير معاني أو كلمات ، وشعارها عند الحكماء « ان من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف »

وهذا « الانسان » في مذاهب الحضارات الكبرى مقبول بتعريفاته وصفاته في جميع الديانات والعقائد الروحية ، ففي وسع العالم الديني أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لمناقشتها ، أو يناقض اعتقاده الديني بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها . وفي وسع العالم المادي أن يفسر صفات الانسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتمس لها مرجعا وراء المادة والطبيعة محالا الى عالم الغيب أو ملموسا مدركا في عالم الشهادة ..

ففي وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الانسان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها

وفى وسعه أن يعلل الأخلاق الانسانية جميعا بغريزة حفظ النوع على سمعتها ، أو بالغريزة الجنسية في نطاقها المحدود بعلاقات الجنسين

وفى وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بطلب القوة والسيادة ، أو بطلب الأمن والدعة ، أو باستحياء الطبيعة وتصوير الانسان كل ما يحسه في خلدته يصور الأحلام ومخلوقات الخيال

وانما يبرز خلاف الرأي بين الدينيين والماديين حين يبحثون في الملكات الفكرية التي تناط بها الأخلاق في كل تعريف من هذه التعريفات : هل تناط بحياة روحية من مصدر وراء الطبيعة والمادة ، أو هي منوطة فيه بوظائف الحياة الجسدية التي لا فرق بينه وبين الحيوان فيها غير فرق الدرجة و « الكيفية » ؟

مثال رأي الماديين يقول به ريدلى Ridley صاحب كتاب الانسان في حكم العلم Man, The Verdict of Science ويستند فيه الى آراء جماعة

من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجي وعلماء الاجتماع ، ويوجزه في مصعة سسطن. فيقول : « ان الإنسان - وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حي سواه - لا يزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى . ولم ير الاغريق الاقدمون داعيا الى فصل الانسان عن جمهرة الكائنات الحية التي كانوا يشاهدونها حولهم ، وقد أدخله أرسطو في نطاق برنامج الحيوى مع سائر الحيوان والنبات ، وجاء لينوس ( ١٧٠٧ - ١٧٧٨ ) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة ( ١٧٣٥ ) وعد فيه نوع الإنسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده في طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف . وبوفون الفرنسي معاصر لينوس ، وضع الانسان في المملكة الحيوانية واجترأ على أن يحتمل نسبته مع القرد الى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يطاق في عرف السلطة الدينية الفرنسية فخيروه بين البند وبين تعديل رأيه ، وهو تحير لم يتعرض له لينوس في البلاد السويدية . وقد وضع الانسان وضعه المحكم في تعريف « الزولوجيين » فجعلوه بين أعلى الأحياء وهى ذوات الفقاريات ، وجعلوه بين هذه فى ذروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلاها بعد ذلك طبقة الأوائى التى تشمل القردة والنسانيس . وهم يقسمون الأوائى أقساما أعلاها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان ينتمى اليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الانسان الحديث وحده هو الذى يصدق عليه اسم البشر الناطق أو الحيوان العارف

\* \* \*

فالماديون من البيولوجيين والزولوجيين يرون أن الارتفاع بالانسان الى ذروته المتفردة فى تقسيمات الحيوان كاف لفهم الفارق الكبير بينه وبين الأوائى Primates وبين هذه الأوائى وما دونها من أقسام الفقاريات وما دون الفقاريات ، ولا حاجة - مع هذا الفارق فى الدرجة - الى فارق آخر من عالم وراء المادة والطبيعة ، وهو فارق الروح

وقد اشتهر فى أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسيم ولكنهم يقولون ان الفارق لا يفهم الا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات

الأحياء إنما ينتهى الى التدرج بينها في الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتقى إليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون اعدادا للبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان

وأشهر القائلين بهذا الرأي الأب بيير تيلهارد دى شاردين Pierre Teilhard de chardin البيولوجى المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحد الذين أسهموا فى كشف انسان بكين وألقوا الدروس العلمية فى المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العالمى بالقاهرة ، وكتابه « ظاهرة الانسان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العلمية الفلسفية التى عدت فى أواسط القرن العشرين بعض معالم الطريق فى اتجاه الفكر الحديث ، وقد سلم فيه تقسيمات علم الحياة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عقب عليها سائلا : « اذا كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حركة الى الوعى وراء نقاب من تركيب الأجهزة العضوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب غايته المقاربة للانسان أن يتمثل هذا الاقتراب فى ابتداء ظاهرة الأهبة السيكلوجية وبزوغ ظاهرة الذكاء . ومن ثم يلقي الضوء على « المفارقة الآدمية » نفسها ، لأننا قد نشعر بالحيرة اذا لاحظنا قلة الفارق التشريحي بين الكائن البشرى وبين من دونه من البشريات على الرغم من سموه العقلي فى بعض مظاهره ، فانه فارق يقل حتى نكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا بعينه ما ينبغي أن ينتظر ؟ »

ويجلبو هذا الرأي بالأمثلة المحسوسة عالم آخر متدين ، هو الأستاذ روسل هاريسون الذى يقول فى كتابه عن مصير الانسان : « اننا لا نعرف الموسيقى اذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التى تدخل فى تركيب العود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتنقص أو تزيد . . . لاحظوا أن الفأرة التى يقل المنجنيز فى غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وانه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويوصلوا منه الى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء ، ولكنهم اذا جاوزوا ذلك فقالوا ان عاطفة الأمومة هى مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطوهم فى هذا الرأى كخطا القائل ان نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار . . »

ويتبدل منحنى الاستدلال المنطقي والعلمي ، إذن ، بهذا التفسير لمذهب النشوء القائل بارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته ومادوتها وما فوقها في الاستعداد لأهبة العقل والوجدان ، فلا بد أن يحدث ذلك للوصول الى الجهاز الحيواني الصالح للنهوض بمطالب الروح والوجدان ، وينقلب الأمر على الماديين فيصبح المادى وهو المسئول أن يقول للمعترضين عليه من رجال الدين : لماذا يكون معيار التقدم زيادة الوعي على درجات تناسب الترقى في تركيب البنية العضوية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام في الأداة وفي النتيجة ان لم يكن هنالك طريق مرسوم لغاية مقدورة ؟ ..

ومن العلماء غير الدينيين من أقنعتهم هذه الحجة بعض الاقناع ووافقت مذهبهم في اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها في اصطلاحهم المتفق عليه Religion without Revelation فقال علم أعلامهم وهو السير جوليان هكسلى في تقديمه لكتاب ظاهرة الانسان : « اننا معشر بنى آدم نحتوى فى أنفسنا كل ما فى الأرض من الامكانات الهائلة ، وفى مقدورنا أن نزيد ما يتحقق منها على شريطة الازدياد من العلم والمحبة » ..

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة ، معنوية ، من كلمات الختام التى انتهى اليها السير جوليان هكسلى فى كتابه « قناني جديدة لحمرة جديدة » اذ يقول :

« ان صورة الانسانية المتطورة أعانتنى على أن أرى - من وجهة المبدأ على الأقل - ان الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتنى الى مخارج من العطف والفكر يحق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك خليفة أن تكبت وتترك نسيا منسيا .. فهى بهذه المثابة تعلمنا كيف يسهم العلم فى تقدم الدين ، وقد قرر جدى فى مقالة عن اللا أدريه كلاما فى هذا الصدد كأنه غنى بذاته عن البرهان فقال : « ان كل انسان ينبغى أن يعطى سببا للإيمان الذى يؤمن به . وان عقيدتى لهى الايمان بالامكانات الانسانية وأرجو أن أكون قد وفقت الى شرح أسبابها »

\* \* \*

على أننا تجتزى بأحدث الأقوال التى انتهى اليها علاة الماديين بيانا

لمزية العقل في احيوان الناطق ، فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية الروح في ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الانسانية على الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبى فى الحيوان عامة وفى الانسان خاصة أشد من تعويل العلماء المتدينين على دلالة الارتقاء الى الملكات الروحية بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية

فالأستاذ بافلوف المشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيان الجهاز العصبى فى بنية الحيوان كان أقرب الى التركيز ، وكان أقدر على المزيد من التأثير بوظائفه العليا على التوزيع والتنظيم فى أعمال البنية كلها » ..

وقد أثبت زملاء بافلوف وتلاميذه أن بقاء الحياة بعد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذى يحتفظ بسلامته بعد توقف النبض بنحو ست دقائق ، وان الوعي الانسانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة ..

جاء فى كتاب مسالك العلم الذى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦ :

من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد : وهى سريعة الفعل تقتل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا. لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الاكسجين ولا تتنفس ، واذا حقنت به عروق قطرة ماتت على الأثر كأنها أصيبت بصاعقة .. وقد حقنت به اثنتا عشرة قطرة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنما حقنت بماء ، وهى الست التى خدرت بالأثر المعقم أثناء الحقن (١) « .. »

الا أن سلطان الوعي على الانسان قد بلغ درجته العليا ، ويقول بافلوف فيما رواه عنه الكتاب نفسه : « عندما بلغ تطور العالم الحيوانى منزلة الانسان نشأت اضافة هامة جدا فى جهاز النظم العصبية العليا .. وفى الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تحدثه من المنبهات التى تصل الى المخ فتبعث التنبيه الى حواس النظر والسمع وسائر الحواس



الحيوانية ، وهذه أيضا هي المنبهات التي تصل إلينا عن طريق المؤثرات  
والأحاسيس والخواطر من العالم الطبيعي أو العالم الاجتماعي الذي يحيط بنا ،  
ما عدا المؤثرات التي ينفرد بها الإنسان وتؤدي له وظيفة التنبيه لذلك  
التنبيه »

ولا يدعى « للحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من  
هذه المزية ، فهي تكاد أن تقرر للروح سلطانا على الجسد كسلطان « الیوجا »  
المعروف عند نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية  
تملك التأثير الأكبر - ان لم نقل التأثير المطلق - فى كيان الإنسان وفيما  
هو أهل له من أهبة العقل والوجدان

## مستقبل الإنسان في علوم الأحياء

ان العلم الطبيعي حذر في تقرير مذهبيه وأحكامه ، وأكثر ما يستبيحه لنفسه إذا وصل الى شيء لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتمانته وإخفائه ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل منتظر يذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل دارون عند إعلانته لنظريته في تحول الأنواع

وإذا وازنا بين حذر العلم في الحكم على الماضي وحذره في الحكم على المستقبل المحدود ، فهو في الحكم على المستقبل أحذر وأقرب الى التردد بل الى التوقف عن مجرد الظن الا مشفوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الماضي وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور غدا . فان علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الانسان جسدا وعقلا منذ ألاف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحدا منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو بتحول واحد مرجح لا يقابله ترجيح مثله الى النقيض

وعذرهم من هذا التهييب مفهوم ، وهو أدل شيء على أن دلائل التطور الماضي لم تزد عند القائلين بها على أن تكون بعض الظنون الراجحة ، ولم تبلغ عند عالم جدير بصفة العلم أن تكون علم يقين .

عذرهم ان العالم يرسم الطريق كلما تكلم على الماضي ليس الا ، ولكنه ينشئ الطريق ويمشي فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير الى المستقبل ، ولا يتساوى من يفتح طريقا ومن لا يزيد عمله على رسم طريق

ان كان بين علماء العصر من يحق له أن يعلن رأيا جازما عن مستقبل التكوين الانساني كما يتمثله علم الحياة فذلك هو « البيولوجي » الكبير الاستاذ « مداوار » Madawar صاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعي « سنة ١٩٦٠ » وصاحب البحوث العالية في تهيئة جسم الانسان لقبول الأجسام الغريبة التي تنفر منها خلاياه على الرغم من تقسيم الأدميين الى فصائل وعائلات في تكوين الدم وأنسجة الخلايا ، فانه قد تبين له من تجارب

يضيق بها الحصر أن الفرد الانساني وحدة لا تتكرر في مكونات بدنه ، وان كل حكم على بنيته من طريق التقسيم الى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ عند اجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة والاعضاء من بنية الى بنية ٠٠

وقد سئل هذا العالم الكبير أن يلقى محاضرات ريث Reith عن ( سنة ١٩٥٩ ) فقال انه لم يكن ليبذل به الادعاء أن يلقى هذه المحاضرات بعنوان مستقبل الانسان لولا انه عنوان مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأى في مسألة من مسائل البحث المقترح ولم يعلن رأيا واحدا قبل أن يراجع في موضوعه زملاء النقائ في مسائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقد ذكرهم بأسمائهم في تمهيده للمحاضرات . وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد النماذج الفردية قد يحول دون التوليد لاجراي النسل على نمط مقدور ، مضى يقول : « ان الأمر يدعو الى التساؤل : هل يتأتى للانسان أن يمدى متطورا غذا كما تطور بالأمس ، أو أن هناك أسبابا تدعو الى الظن بأن هذا التطور قد بلغ أقصى مداه ؟ ٠٠

وطفق الاستاذ يقلب وجوه النظر ويعادل بينها حتى بلغ نهاية محاضراته وهو لم يجزم قط بمصير محدود ، سوى أنه رجح بعض الفروض ولم ينس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات ٠٠

قال - مثلا - ان الاحصاءات في بريطانيا العظمى دلت على تكاثر نسبة المواليد الذكور بعد الحروب ، وان بعضهم فسر ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض النقص على عاداتها في كثير من المشاهدات ، فهو تفسير ليس بالغريب ، ولكنه قد يبطل اليقين به. ان هذه الزيادة أيضا قد شوهدت في أمم لم تفقد أبنائها في الحرب ولم تكن من الأمم المقاتلة

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهي غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوال ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال انها طريقة لم تكن ميسرة الوسائل قبل السنين الأخيرة ٠٠ ولكنها تيسرت الآن لانتظام الاحصاء في شتى مظاهر الحياة ومنها تسجيل نسبة الجنسين وتسجيل معدل العقود الزوجية وسن الذكر وسن الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو

مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيده الطريقة الأولى عند تعليل تعويض المواليد للوفيات ، لأنها تبين الوقت الذى تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالاحصاء هل يزيد العدد لزيادة الحُصوبة العائلية أو لزيادة الوقت المحدود للاحصاء ؟

ولم يتقبل العالم البيولوجى بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يفهمون من كلمة الانحدار أو هبوط الاستعداد الحيوى أن النوع الانسانى سينحدر حتى ينقرض ، وقال ان العبارة « متحف من المقائض » فاننا اذا استطعنا بالعناية أن نحتفظ الى اليوم بأناس كانوا - لولا ذلك - قد أصبحوا أمواتا قبل عشر سنوات ، فنحن كيفما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات ٠٠ كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقاقير التى تداوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك الا أن الذين سيموتون غدا قد يموتون اليوم بدلا من ذاك

ومن دواعى تصعيب النبوءة عن المستقبل أن التغيرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغيرات التى تقع فعلا ، وان اختلاف اثنين من البشر فى الواقع قد يعنى قبل ذلك افتراض عشرات من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأخفى ٠٠ ومن أقدم الأسباب المعلومة عند الجينيين Geneticists لاحتمالات التغيرات المتعددة ما يسمى بقابلية المقايضة بين الصبغيات ٠٠ وهى عملية يمكن أن تتم اذا كانت كلتا الصبغيتين مماثلة للأخرى تماثلا يميل بها الى الامتزاج ، ثم اعادة الامتزاج على أشكال طارئة مبتدعة ٠ وربما جاء اليوم الذى يستطيع فيه الكيمييون والطبيعيون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، وخلق بهذا أن يذكرنا أهمية التحول الفجائى Mutation وما يترتب على امكان احداثه من تغيير النسل بالانتخاب الصناعى ٠ والمشاهد من أطوار جراثيم « البكتريا » أن لها خاصية عجيبة وهى خاصة الاحتياط لمعالجة الأضرار التى قد تطرأ فى المستقبل ، وربما وجدت فى الناس خاصة كهذه يدل عليها نجاة فريق منهم من الأوبئة والعلل المنتشرة ، وكون ضرب من المناعة يزود خلاياهم الناسلة بمثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل ٠ وقد يدهش السامع - بعد كل ما عرف عن الوراثة - أن يعلم انه لم توجد بعد فكرة وافية عن الأمور التى تفعل والأمور التى تجتنب لتحسين نتاج الحيوان بالانتخاب الصناعى ٠٠

ويؤخذ من استطراد العالم البيولوجي في أمثال هذه العوامل الجينية أن العلم بها يفتح آفاقا من فروض التغيرات المحتملة يقصر عنها وسع النبوءة والتوقع ، وإن الاستعانة بالمعارف المستحدثة تمكن الإنسان من معرفة وسائل التحسين في الذرية ووسائل اتقاء الانحطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تضبط - بعد - على يقين من نتائجها

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على ضبط هذه الوسائل الجينية ، لأن هناك وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التي قد تنتقل بالوراثة من الدماغ . .

قال الأستاذ مداوار في محاضراته الأخيرة : « اننى فى هذه المحاضرة الأخيرة سأبحث فى الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة - غير الوسيلة الجينية - للوراثة والتطور مبنية على خصائص وحركات مصدرها الدماغ

» وإن وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة . . فلم يكن البيولوجيون هم أول من أفضى إلى أناس سراع إلى التصديق بأن الكائنات البشرية ذات أدمغة ، وإن الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وإن الإنسان قادر على أن يؤثر فى الأعقاب الآتية بوسيلة غير الوسيلة الجينية ، وإن كثيرا مما قرأت فى أقوال البيولوجيين ليلوح عليه أنه لا يفيدنا بشئ يزيد على ما ذكرت لكم وإننى لأحس أن البيولوجى مطالب بأن يسهم بنصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التى تتفرع عليها الأخلاق وضروب السلوك ، وهو ما أحاوله الآن . . ولا بد أن تأتى هذه المحاولة مستندة إلى التفكير « الصلب » لا التفكير « الناعم » . . وأعنى بذلك تفكيرا يعرف له حيز واقع وتدرج له تفصيلات بينة ، مقابلا للتفكير الذى يجد متنفسه فى الكلمات الموثقة والعبارات المفخمة الشعرية

« وأرانى أقارب الوضوح البين اذا عبرت عن ذلك بمثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا إلى الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العازف والجهاز الحاكى « الجرامفون »

« فالصندوق العازف جهاز يحتوى قالباً أو أكثر من قالب من قوالب الجرامفون يعيد للسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك

الزر بالباعث أو المحرض ... وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدى الى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتى بأثر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة . واننى أبعث الصندوق بلمس الزر - أى زر - الى احداث نغمة موسيقية ، ولكننى اذا اخترت زرا معيناً فالباعث هنا يدعو الى احداث نغمة معينة دون سائر النغمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة جزء من الصندوق وليست جزءاً من البيئة المحيطة به ، وكل ذلك راجع الى تركيب الصندوق فليس ضغطى على الزر توجيهها للصندوق فى أداء نغماته الموسيقية

• • • والآن تقابلون بين هذا وبين عمل الجرامفون أو أية أداة أخرى تؤدى لنا النغمات الموسيقية .

« ان لدى قوالب موسيقية أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع القالب على الجرامفون والقالب منقول اليه من البيئة المحيطة •• فذلك باعث كباعث الصندوق العازف الى أداء الأنغام الموسيقية ، ولكنه يضيف الى الباعث هناك شيئاً أكثر من ذلك •• وهو الخطوط المرسومة التى تتر بها الابرة فتبعث منها الأنغام المؤداة ، وليس لدى الجرامفون مصدر للتوجيهات الموسيقية وانما هو القالب الذى جاء الى الجرامفون من البيئة الخارجية ، فكانت علاقتى به - اذن - علاقة تعليمية ، لأننى - بمعنى من المعانى - قد علمته كيف يؤدى النغم المسموع

• • ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا الجرامفون وأعدنا كلا منهما للعمل الذى يؤديه ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى مغزى الاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك •• فلنذكر هذا الاختلاف فيما يلى من المقارنات ••

« ••• منذ عشر سنوات اتجه البيولوجيون الى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه بالصندوق العازف منها بالجرامفون ، وان كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو فى الواقع حركات تنبيهية ليس الا •• أى ان تحريك الكائن الحى يحدث شيئاً هو نتيجة تركيبه وليس - كما كان مظنوناً - نتيجة شىء من الخارج •• فليست الآثار المستقرة فى الجهاز الحى خطوطاً مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز ، ولكنها آثار جينية مودعة فى الصبغيات وحوامض الخلايا

« واسمحوا لى أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« فأقدم الأمثلة وأشيعها مثل التغير الذى يعترى جمهورا من الناس عرض له التطور ، فكيف نصنف البواعث التى تفعل فعل التطور فى الأجهزة الحية ؟ ٠٠ ان النظرية اللاماركية التى تقول بوراثة الصفات المكتسبة هى على أعمها تنظر الى البواعث التعليمية ، تعنى أن البيئة على نحو من الأنحاء قادرة على اعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وان هذه التأثيرات اذا سرت فى البيئة سريانا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة الى أعقابها ٠٠ فالحداد الذى طالما ضرب به المثل لتعزيز هذه الملاحظة ، يستفيد قوة فى ذراعيه من طرق الحديد فتؤثر هذه القوة فى الخلايا التى تنشئ بذوره المنوية وتنتقل من ثم الى أبنائه ، فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتربية الأذرة القوية ٠٠ ولست أفيض فى مناقشة التجارب التى تكررت لامتحان العوامل اللاماركية ٠٠ وحسبى أن أجملها فأقول انها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبيهية وليست تعليمية

« ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا اذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مضر بقوامها ، فانها فى هذه الحالة قد توفق بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقار وتلغى مفعوله ، وقد سميت هذه العملية زمنا باسم تدريب البكتريا على اعتبار أنها عملية قادت البكتريا الى تعلم طريقة جديدة لتوليد الحماثر من طعامها ، ولكنها تسمية لم تلبث طويلا حتى تبين خطأها وتبين ان هذه العملية وسيلة تنبيهية وليست بالوسيلة التعليمية . فليس فى وسع البكتريا أن تنشئ خميرة غير التى هى مفطورة على انشائها ، وكل ما حدث عند تغيير الطعام انه نبه الاستعداد الذى لم يكن له منبه قبل ذلك ، وهو استعداد كامن فى التركيب وليس بالتعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار ٠٠

« ويصدق هذا على تطور الحيوان ٠٠ فقد كثر الجدل زمنا بين أنصار القول بالتنبيه وأنصار القول بالتعليم ، اذ كان الأولون يرون أن كل تطور فانما هو نشر لما كان مطويا هناك ، وكان المتطرفون منهم - وطالما تعرضوا للسخرية - يرون أن بذرة النسل انما هى انسان صغير . أما الآخرون فعندهم أن العوارض التى تعمل فى تكوين الجنين انما هى بواعث تعرض

له مما حوله • ولعل الحقيقة وسط بين هذين الطرفين ، فالعوامل الجينية تتم لأنها كامنة هناك ولكن استيفاءها رهين بالعوامل الخارجية عنها ••

« والى نحو ستنتين كنا نشعر أن ضرباً من النمو يتم فى أجهزة الحيوانات العليا بفعل البيئة على اعتبارها موجهاً أو معلماً ، على النحو الذى نشاهده عند تلقيح الأنسجة بمادة خارجية ، تؤدى الى انشاء البنية لمادة بروتينية خاصة •• أغلب ما يكون عملها أن تحول دون تلك المادة والاضرار بالبنية ، مما يكون له أثره فى الوقاية من عدوى الأمراض •• ومع البوادر التى توحى بأن هذه العملية تعليمية ، أخذ كثيرون من البيولوجيين يشكون فى ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون تنبيهية فى جوهرها •• ونعود الى الصندوق العازف مرة أخرى ••

« وبعد •• فأبى ظفر يتاح لنا لو أمكن البنية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟ •• ربما قال لنا زائر قدم الى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم •• انه لظفر عظيم ، واننى لألح سره وأفهم ان هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحى والبيئة ، ويجعل الكائنات الحية مهيأة للنمو والتطور على صورة أوفى وأسرع من صورة التطور بفعل الانتخاب الطبيعى ، لولا أنها صعبة جداً ، وأنها ليست مما يستطاع ••

الا أنكم تعلمون أنها استطيعت ، وان هنالك جهازاً قابلاً لان يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز الدماغ

« وأننا لنعلم القليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدار تعقدها واشتباك وظائفها •• فان تطور الدماغ قد كان آية رائعة فى هذا الوجود ، وهو - ولا ريب - أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ••

« على أننى أظن أن الدماغ انما نشأ فى مبدأ أمره كذريعة للتنبيه ، وان السلوك الغريزي انما هو ذلك السلوك الذى تستجيب به البنية لتنبيه المؤثرات الخارجية ، فاذا لقحت دجاجة بهرمونات الذكر أخذت هذه الدجاجة فى سلوك كسلوك الديك لم يكن أصله يعيداً من تكوينها

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعليمية فنحن نتعلم



« ٠٠ ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جيل الى جيل كما-  
نسى الخطابات المتسلسلة التي تبدأ بكتابة خطاب الى أحد الناس ، وتسأله  
أن يبعث به الى غيره ويوصى ذلك الغير بأن يبعث به كذلك الى آخر وآخر  
الى غاية الشوط الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم ابنه كيف يعلم حفيده وابن  
حفيده وهكذا ، وهكذا ، على مدى الأجيال ٠٠

ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار في تطور الدماغ : أولها  
الجهاز العصبي وقد نشأ لتنبية البنية ٠٠ ثم دور الدماغ وفيه تتلقى الكائنات  
الحية التعليم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطريق الجينية يأتي  
من قدرة الدماغ الدقيق التركيب على شيء أكثر من تلقي التعليم وهو نسليمه  
الى آخرين . وانه لعامل خاص بالنوع الانساني لعله قام بعمله الهام منذ  
خمسمائة ألف سنة ٠٠ أما الدور الرابع فهو شديد الشبه بالدور المتقدم ،  
ولكنه لا يماثله تمام المماثلة ، ونعنى به دور التطور الذي يشمل الجماعة  
كلها وقد تضاعف عمله منذ مائتي سنة ٠٠

ونسأل بعد هذا ما الذي نستفيد مما تقدم ؟ فنقول ان الاغترار  
بالمشابهات خطر لأنه يغض من أثر الاختلافات ٠٠ فالمشابهة بين تطور الفرد  
وتطور الجماعة لا يجعلهما عملية واحدة في مجرى الحوادث ولا في عواقبها ٠٠  
فصناعة الحداد تورث ولا شك ، ولكن وراثتها من طريق التاسلات والصبغيات  
— أو ما نسميه بالطريق الجينية — غير مستطاعة ٠٠ وفائدة التمييز بين  
التطور الفردي وتطور الجماعة أن نبعد عن أذهاننا فكرة القوانين الطبيعية  
التي تعمل في الحالتين على سنة التغييرات الجينية ، أو الفكرة التي تقول لنا  
ان الجماعة لا بد أن تولد وأن تموت كما يتعاقب الموت والولادة على الكائنات  
الحية ، أو الفكرة التي توحى اليها ترك الجهد في تحسين الجماعة اعتمادا على  
أن الطبيعة أخبر وأدري

\* \* \*

« ونحن اذن نستطيع أن نهذب الطبيعة ، ولكن اسنطاعنا هذه مرهونة  
بمقدار ما نملك من وسائل الغوص على أسرارها وخفاياها ومشايرتنا على  
زيادة محصولنا من العلم بما يجرى فيها ٠٠ ولست أقول ان الانسان مدفوع  
بغريزة تحفزه الى الكشف والاستطلاع وانه مسخر أبدا في طلب الحقيقة ،  
فان الحيوان أيضا مزود بما يمكن أن يسمى على الاجمال حبا للتطلع أو

التجسس ، ولكن هذه الغريزة وان بلغت غايتها من الاحكام والقوة لا تقيدنا ولا ينبغي أن نكون مدفوعين دفعا الى الاستطلاع ، وان أولئك الذين يبسطون لنا قوانينهم عن مقاصد الطبيعة يقاربون حدود الخطر والوبال . وما علينا الا أن نذكر عاقبة الدعوى التي زعم أصحابها أن الانسان مزود أبدا بنزعة النضال والقتال . ونحن نقابل بيننا وبين أنواع الحيوان الأخرى ، فنرى على التحقيق أن الفارق بيننا وبينها في هذه الحصلة هو أن الأجراس التي تدق لنا دقات التنبيه إنما هي كأجراس الماشية بجبال الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على أحد سوانا اذا لم نسمع منها ما يرضينا »

\* \* \*

هذه خلاصة مقتبسة من كلام العالم البيولوجي اقتباسا تحريفا فيه تصوير معناه ولم نلتزم حروف نصوصه ، ومجمل هذا المعنى أن مستقبل الانسان الطبيعي مستكن في كيانه وانه يملك وسائل التهذيب الاجتماعي ولكنه لا يقدر على احداث أثر لم تكن مولداته مطوية في استعداده ، وان الأجراس التي تدق له دقات الخطر على حياته النوعية أو الفردية هي نفسها جزء من تلك الحياة ، وكذلك العلاج الذي يحتال به على الخطر بعد الانتباه اليه إنما هو من عقار أرضه ووصفات طبه .

دواؤك منك وما تشعر      ودواؤك منك وما تفكر

\* \* \*

وقبل الاستاذ مداوار بخمس عشرة سنة ، عند نهاية الحرب العظمى تقدم للإجابة على هذا السؤال عن مستقبل الانسان عالم بيولوجي من المؤمنين بالنشوء والتطور ، يضارع مداوار في منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الانساني Human Destiny سلسلة من البحوث الحديثة على منهج غير منهج زميله المتأخر ، لأنه يفترض الغاية المرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا الى عناية الالهية تتلخص حكمتها الهادية في أنها « تريد » ولكنها تعلم الخلائق أن تريد لنفسها وأن تترقى بالارادة على حسب جهودها ، مع الهداية التي تلهمها ولكنها لا تلهمها الا لكي تعينها بالالهام على أن تعمل عملها وتسلك سبيلها .

ومؤلف كتاب القدر الانساني هو العالم البيولوجي الجليل ليكونت

دى نوى De Nouy الذى يقول ان استمرار النشوء والقول بالمصادفة مفارقة لا تعقل ، وهو يشبه مجارى النشوء فى الكون بجداول البحيرة التى تنصب من فوق الجبل الى مستقرها فى الأودية ، فتمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفترق وتحمل معها ألوانا من الرواسب والطوافى تخالف بينها آخر الأمر حتى كأنها ينابيع لم تصدر من أصل واحد ولم تجر على سنة واحدة ، والواقع أنها ليست كذلك وإنما فى أصلها من بحيرة واحدة وفى حركتها خاضعة لقوة واحدة هى قوة الجاذبية

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن التوفيق بين البنية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى نودين - دى فرى Nudin — De Vries كلها صالحة للمساهمة فى تفسير عوامل النشوء والتطور

قال : « ونعيد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوما الا اذا سلمنا أنه خاضع لغاية ، وانما غاية بعيدة مقدورة »

ثم ختم بحوثة قائلا : « ان بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذى يصبح فيه الانسان وقد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشعر بضميره ، وألا يكون كل حقه فى المعاملة أن يعامل كما يعامل الطفل القاصر ، وربما صح هذا ولكنه - اذا صح - كان خليقا أن يصبح سببا للاتجاه بجهوده الى تلك الغاية : « وان الانسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الضمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وأن يلح الدور العظيم الذى يضطلع به فى انجاز غايات التطور ، فليس الانسان كذلك الحيوان الأعمى الذى يصل فى أعماق البحر ولا يدري أنه يبنى بعمله جزيرة مرجانية سوف تعمر بالكائنات التى هى أصلح منه وأعلى ، لأن الانسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلالة المقبلة التى ستكون على وجه من الوجوه وليدة سعيه وجهده . . . وعلى كل انسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وسيبقى كما كان ، أن يناضل وأن النضال لم يهدأ لأنه تحول من الميدان المادى الى ميدان الروح . وعليه ألا ينسى أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، ينبغى أن تصدر من جهاده فى تحرير نفسه ، وأن ينقاد فى ذلك الجهاد لأعمق البواعث من قرارة وجدانه ، ولا ينسى أبدا أن الشرارة الإلهية

كامنة في تلك القرار ، في قرارته دون غيره ، وأنه هو حر قادر على أن يهملها وأن يقتلها ، قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن غيرته على العمل مع الله والعمل في سبيل الله »

ولقد آل تطور الانسان عند غير البيولوجيين الى تطور الانسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقام الصناعات الصغيرة التي بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الانسان سيد الخليفة حين جعلته قادرا على العمل بيديه واختراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله . وستفعل الصناعة الكبرى بأيدي المجاميع البشرية فعل الأداة الحجرية قبل مئات القرون بيد الانسان الأول ، اذ لم تكن له قدرة على الحيوان الأعجم غير تلك الاداة

ولا نخال أن أحدا عبر عن هذا الرأي تعبيرا أدنى الى الفهم من تعبير الاستاذ رسل هاريسون في كتابه : « ماذا يكون الانسان » . فانه ترك لغة « بابل » الحديثة : لغة البلبلة العلمية بين الفروض الصريحة والفروض المبهمة والمقابلات من هنا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث ينبغي أن يوضع ان كان له موضع على الاطلاق ، وذلك هو موضعه من « الشخصية الانسانية » . . . .

فلا مستقبل للانسان ان لم يكن مستقبلا لشخصيته الكاملة ، ولا تطور لهذه الشخصية ان لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من النقص والخلل .

ان الشخصية الانسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب . ومعنى تطور الانسان في الذهن أن تنم له هذه الشخصية بعد ما نبتت له بذورها مع أطواره الماضية ، وليس في الواقع ما يمنع « الشخصية الانسانية » أن تتحقق كما تحققت في الذهن ، فكرة قابلة للتمام . .

## عود على بدء

بعد هذا الشوط في عرض المذاهب والآراء عن الانسان نسأل على ثقة من الجواب .

هل صحيح أن القرآن يلقي بالانسان غريبا منقطعا في القرن العشرين ؟

والجواب الذي لا تردد فيه ، ان القرآن - على النقيض من ذلك - يضع الإنسان في موضعه الذي يتطلبه ، فلا تسعده عقيدة أخرى أصبح له وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب « مواطنًا » أصبح وأصلح من الانسان الذي يؤمن بالأسرة الانسانية ، ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه في كل أرض وبين كل عشيرة آدمية . وهو فضل الاحسان في العمل واجتناب الاساءة ، وليس لهذا العصر حق على بنيه أصبح وأصلح من حق الشعور « بالمسؤولية » والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام الى العقل في كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئنان الضمير الى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول ، ولا بد في كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول .

ان القرآن يعطى القرن العشرين انسانه الذي ليس من انسان أصبح منه وأصلح لزمانه ، فاذا آمن هذا الانسان بالله وبالنبوة فليس أصبح ولا أصلح : لعصر الوحدة الانسانية من الايمان برب واحد للعالمين ، ونبوة تختم النبوات - بعد الايمان بهذا الاله الواحد - لتسلمه الى عقله وضميره ، وتسأله عن اصلاح نفسه واصلاح دنياه بما يدعو اليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة في الدنيا والآخرة

واذا كان هذا هو انسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة بالناقد المنصف الى حظ كبير من الترفع لينظر من عل الى أولئك المتعالمين المتوقرين أولئك الذين يزعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فخرجوا منها بمقطع الرأي

وقال لهم مقطع الرأى هذا ان القرآن نسخة مكررة - بل مشوهة - من هذه الديانة أو تلك الديانة ، وانه لم يحدث بعدها جديدا فى عالم الروح وعالم العقيدة ، وهو الذى هدى العالم فى أمر الاله وفى أمر النبوة وفى أمر الانسان الى هذا الفتح المبين . . وما من بقية تبقى فى لباب العقيدة بعد هذا الجديد الدائم فى أمر الحقيقة الالهية وأمر الرسالة والهداية ، وأمر الكائن الحى المميز بين مخلوقات الله أجمعين : وهو هذا الانسان الذى تخاطبه الأديان . .

\* \* \*

وقد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القرآن فى كثير مما عرضناه أو أشرنا اليه فيما تقدم . وقد نرى - أهم من ذلك - أن آيات القرآن تفسح للعقل الانسانى كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا تصده عن طريق قط يترقب منه معرفة نافعة توافق المعارف الشائعة أو تناقضها ، فما من طريق يسلكه الباحث الصادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القرآن ، الا أن يكون الطريق الذى لا يفتحه يوما دين يدعو الى الله : وهو طريق الاتحاد

ففيما تقدم من شروح حكماء الاسلام ما هو أعجب من قروض النشويين بعد القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجاتها من البهيمية الى القرد الى الانسان ، وللنشويين المحدثين آراء قد يستمدون تأييدها - لو شاءوا - من آيات قرآنية فسرّها بعضهم تفسيرا يتقبله القائلون بتنازع البقاء وبقاء الأصلح وتتابع الأطوار :

( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ) .

( سورة البقرة )

\* \* \*

( فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ) .

( سورة الرعد )

\* \* \*

## ( وقد خلقكم أطوارا )

( سورة نوح )

فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب  
« النظريات » والفروض فى كل عصر يظهرون فيه ؟ ٠٠ نقول « كلا ولا ريب »  
لأنها قد تثبت كلها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل  
وجيل ، ولكن القرآن يعمل عمل الدين الصالح اذا سمح للعقل أن يلتمس  
الحقيقة مع كل فرض من الفروض وترك له أن ينتهى بها الى نهاية شوطه  
مستثلا عن نتيجة عمله وعما يفيد أو لا يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس  
من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات فى معرض الجدل  
لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملئ للعقل فى عمله ولا يصدده  
عن سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الايمان  
والتفكير ٠٠

فاذا أخطأ من يقحم القرآن فى تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله  
فى الخطأ من يقحم القرآن فى تحريمها وهى بين الظن والرجحان ، وبين  
الأخذ والرد ، فى انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات  
العيان ٠٠

وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرموا القول بدوران  
الأرض ، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرموا  
القول بجراثيم الوباء وهى - فيما تبين بعد ذلك - احدى حقائق العيان

ومذهب التطور - خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع - لم يثبت -  
بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من  
نوع الى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصالح ،  
ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه  
من الوجوه ، وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب  
الطبيعى ، لأن خلق الانسان من الطين لا ينفي التحول الى غير الطين ولا يوجب

علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وانما  
نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الانسان من طين ..  
( ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين )

( سورة السجدة )

\* \* \*

وفى آية أخرى : ( من سلاله من طين ) فلا اختلاف بين هذا وبين التحول  
الذى يثبت - اذا ثبت - على وجه من الوجوه

ومذهب النشوء - مع سائر العلوم الحديثة - يقول لنا عن المستقبل  
البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضى البعيد : هل يتطور الانسان فى  
المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسلكه  
فى طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع الى القرآن ليعلم حكمه فى التطور المقبل وجده على العهد به  
يملى للعقل ولا يصدده عن طريق يرجى منه النفاذ الى علم مجهول . وفيما  
تقدم كلام نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ،  
نلتفت اليه فنعلم أن قوانين « الناسلات والصبغيات » فى الأرحام لم تنبئهم  
بخبر يهدى الى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نبأ ان الغد كله مرهون  
بميراث العقل والمشيمة والايمان ...

فالذى يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر الى ما كان  
معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم - كثر أو قل - لا ينفعهم فى  
تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح فى ظلمات الأرحام ، وانما ينفعهم  
أن يحسنوا هداية « الانسانية » الى خير ما تستطيعه العقول المميّزة اذا صدقت  
النية على حسب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم  
والإرشاد ، وجعلت مسألة التقدم و « بقاء الأصلح » مسألة فهم واعتقاد. أدنى  
الى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام

ونخال أن القرن العشرين لم يكن فى غنى عن هذه الهداية من علماء



النشوء ، ولكنها الهداية التي تعلمها من القرآن من تعلم ( أن صلاح الإنسان فكر وأمانة وإيمان ) و ( أن الأرض يرثها عبادى الصالحون )

ونعيدها كلمات موجزة فى ختام هذه الصفحات عن الإنسان فى عقيدة القرآن وفى عقائد الأقدمين والمحدثين :

ان القرن العشرين لم يضع الإنسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء : موضعه بين خلائق الأرض والسماء انه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما خفى عليه

وموضعه بين بنى آدم وحواء انهم اخوة من عشير واحدة ، أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

( تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا

يعملون )



# فهرس

صفحة

تمهيد . . . . . ٦

## الكتاب الأول : الانسان في القرآن

المخلوق المسئول	. . . . . ١٣
الكائن المكلف	. . . . . ٢٠
روح وجسد	. . . . . ٢٩
النفس	. . . . . ٣٤
الأمانة	. . . . . ٤١
التكليف والحرية	. . . . . ٤٨
أسرة واحدة	. . . . . ٥٥
آدم	. . . . . ٦٣

## الكتاب الثاني : الانسان في مذاهب العلم والفكر

عمر الانسان	. . . . . ٦٩
الانسان ومذهب التطور	. . . . . ٧٩
التطور قبل مذهب التطور	. . . . . ٩٢
أثر مذهب النشوء في الغرب	. . . . . ١٠١

## صفحة

١٠٨	• • • • •	مذهب التطور في الشرق العربي
١٣٣	• • • • •	الدين ومذهب دارون
١٣٨	• • • • •	سلسلة الخلق العظمى
١٤٦	• • • • •	الانسان في علم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية
١٥٦	• • • • •	الانسان في علوم النفس والأخلاق
١٦٤	• • • • •	مستقبل الانسان في علوم الأحياء
١٧٥	• • • • •	عود على بدء

رقم الايداع بدار الكتب ١٨١٤/١٩٧٣

مطبعة دار العلوم



دار العلوم للطباعة  
ت ٣١٧٤٨



٣٠